الفصل الثاني
حروب البترول

"ما لم يرفع حظر البترول عن الولايات المتحدة- وما لم ترفع القيود الموضوعة على انتاجه، فلن يكون فى وسعى عملى شىء فى أزمة الشرق الأوسط " .
[الرئيس " ريتشارد نيكسون " فى خطاب سرى الى الرئيس " أنور السادات " بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٧٤]

-------- ١ -------

فور قيام العراق باحتلال الكويت انهمر طوفان من بيانات الاستنكار والأدانة من داخل العالم العربي والعالم الخارجى .

كان التيار الغالب والتلقائى فى الأمة العربية على اختلاف شعوبها- شعورا بالمفاجأة والدهشة والقلق ، كلها فى نفس الوقت- مزيج من مشاعر إنسانية ووطنية بسيطة وواضحة .

وكان الموقف الرسمى للدول العربية على تعددها مختلفا درجة أو درجات . فقد تداخل فيه ما ساور جماهير الأمة من مشاعر، مضافا إليه بعض الخشية من السوابق ، وبعض العوامل الذاتية، وبعض من آثار الالتزامات الدولية للأطراف . كثير تداخل كله فى شحنة واحدة مركبة، ومتحفزة!

وأما فى الغرب بصفة عامة، فإن طوفان البيانات لم يقتصر على الاستنكار والادانة وإنما كانت الاجراءات والاستعدادات أكثر سرعة من الكلمات. ومع التسليم بأن قطاعات لا يستهان بها من الرأى العام العالمى كانت تصدر فى رد فعلها عن مبدأ، فإن سلطة القرار فى الغرب بصفة عامة لم تكن تتحرك استيحاء لنفس المصدر . كان هناك كلام كثير عن إقدام دولة كبيرة على ابتلاع دولة صغيرة . وكان هناك كلام كثير عن قوة إقليمية كبيرة لها مطالب امبراطورية فيما حولها . وكان هناك كلام كثير عن نظام دولى جديد، اما أن يؤكد نفسه بالفعل، وإما أن تسقط مبادىء التعامل الدولى الذى أرسيت قواعده منذ انشاء الأمم المتحدة وحتى الآن . وترددت مقارنات بين العراق وألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية، ولكن كلمة واحدة هى أكثر ما يشير إلى الحقيقة ظلت غائبة ، وهي كلمة " البترول ". ولعل المحاولات كانت تجرى باستمرار لتجنب ذكرها خصوصاً في المراحل المتقدمة من الأزمة..

إن واشنطن ولندن اتجهتا إلى خيار الحرب منذ الساعات الأولى، ولكن هذا الخيار كان يصعب تقديمه حتى للرأى العام فى الولايات المتحدة وبريطانيا على أنه قرار بالحرب من أجل البترول. فعندما يطلب من الناس أن يعطوا دماءهم لهدف ، فإن هذا الهدف لابد أن يتم طرحه على شكل نبيل يساوى أن يدافع الناس عنه بدمائهم . وهكذا اختفت كلمة البترول، وانفسح المجال كاملاً لفكرة الدفاع عن النظام الدولى الجديد، والشرعية الدولية ، وحق الشعوب فى حريتها ومصيرها.

لقد كانت تلك كلها أهدافاً نبيلة، وأما هدف البترول فلم يكن فيه شىء من ذلك النبل .

ليس هناك صراع فى التاريخ يمكن نسبته بالكامل إلى عنصر واحد، إلا إذا جرى النظر إليه بطريقة مسطحة، والحاصل أن عوامل الصراع فى العادة تتراكم ، وعند لحظة حرجة يحدث الفوران . ولقد كان البترول عنصرا دائما فى كل أزمة كبرى وقعت في العالم العربى منذ بدأت رياح الاستقلال تهب عليه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكان البترول يطرح نفسه على الأزمات، أو كانت الأزمات تطرح نفسها على البترول وفق متغيرات الظروف. ولقد كان " عبد الرحمن عزام " (باشا) صاحب فكرة الجامعة العربية وأبرز مؤسسيها وأول أمين عام لها- هو الذى خطرت له منذ البداية فكرة أن بترول العرب يستطيع أن يخدم أهدافهم السياسية بنفس القدر الذى يخدم فيه مطالب غيرهم الاقتصادية . وفي ظروف معركة قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ توجه " عبد الرحمن عزام " (باشا) لمقابلة الملك " عبد العزيز آل سعود " يعرض عليه فكرة استعمال البترول فى الضغط على الغرب كي لا يتجاهل الحقوق العربية فى فلسطين . وكان تقدير الملك " عبد العزيز " وقتها أنه لا يرى صلة بين الأمرين . وطالت المناقشة بين الاثنين وختمها الملك " عبد العزيز " بصراحة محارب بدوى عجوز قائلاً : " اننى لا أفهم ما تتحدث عنه . أننا لم نكن نعرف ان البترول موجود بأرضنا، وجاء الأجنبى فقال لنا انه موجود . ولم نكن نعرف كيف نستخرجه من باطن الأرض، وجاء الأجنبى فاستخرجه من باطن الأرض . ولم نكن نعرف كيف نذهب للأسواق ونبيعه، وجاء الأجنبى فأخذه للأسوق وباعه وأخذ نصيبه بعد البيع وأعطانا نصيبنا . فلماذا تطلب منى الان أن أعاقبه؟ " – وهكذا كان البترول قرب أول حرب خاضها العرب فى تاريخهم الحديث ولكنه لم يدخل فيها.

وفى معركة ١٩٥٦ كان البترول موجودا فى المعركة بحكم أن قناة السويس، وهى أهم معابره فى ذلك الوقت، كانت مسرحا للقتال . لكن البترول لم يدخل فى المعركة كعامل مستقل عن غيره من العوامل .

وفى معركة ١٩٦٧ اقترب البترول أكثر فأدى دورا فى دعم الدول التى تأثرت أكثر من غيرها بنتائج المعركة . كانت هناك صيحة أثناء معركة ١٩٦٧ تنادى بقطع إمدادات البترول عن الغرب عقابا له على مساندة إسرائيل . وظلت الدعوة عالية بعد أن انتهت المعركة إلى ما انتهت إليه. وكان لـ " جمال عبد الناصر " – بعد تفكير طويل – رأى مختلف مؤداه أن الدول العربية المنتجة للبترول لن تقبل بوقف إمدادات نفطها، وإذا كان على العرب أن يواصلوا القتال فإن البترول لابد أن يتدفق خصوصا إذا أمكن تخصيص جزء من موارده لدعم المعركة . وكانت هذه صيغة لحل وسط تلقفها الملك " فيصل " وجرى اقرارها في مؤتمر القمة العربي في الخرطوم (اغسطس) ١٩٦٧ حيث تعهدت الدول العربية المنتجة للبترول بأن تدفع مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه استرليني كل سنة دعماً لدول المواجهة مع إسرائيل، وهى فى ذلك الوقت مصر، وسوريا، والأردن .

كانت هذه معارك ثلاث عبر فيها ظل البترول من بعيد ، أو قريب على ساحات الصراع .

ثم جاءت بعد ذلك ثلاث معارك يمكن وصفها بالفعل بأنها حروب البترول الثلاث التي يتحتم الوقوف طويلاً أمام كل واحدة منها، لأنها جميعا تمثل خطا متصلا فى اتجاه ما وقع في الفترة من ٢ اغسطس ١٩٩٠ حتى أواخر فبراير ١٩٩١- وإلى الآن، وإلى مطالع القرن الواحد والعشرين :

o أولها معركة ١٩٧٣ التى قام البترول فيها بدور شريك كبير للسياسة والسلاح ، والتى تجاسر فيها العرب بعد تردد على استعمال البترول كقوة رئيسية من قوى الصراع ضد مناصرى إسرائيل ، وفى مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية.

o وثانيها هى الحرب العراقية- الإيرانية التى دارت رحاها لمدة ثمانى سنوات من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨. وكان تأثير هذه الحرب فى قضية البترول تأثيرا بعيد المدى ، ويكفى أنها دارت بين الدولة الثانية فى إنتاج البترول فى الشرق الأوسط (ايران) والدولة الثالثة (العراق) [**العراق هي الدولة الثانية في انتاج البترول ضمن مجموعة الدول العربية بعد السعودية ، وهي الثالثة ضمن مجموعة دول الشرق الأوسط بعد السعودية وايران .**] ، وأن تمويلها كان بموارد البترول على الناحيتين، ثم إن أول أهداف كل طرف من طرفيها انصب على ضرب منابع البترول ومنشآته لدى الطرف الآخر . وأخيرا فإن هذه الحرب كانت هى الظرف الذى تحشدت فيه الأساطيل البحرية للغرب في منطقة الخليج .

o وثالثها هى حرب الكويت... وهى فى المحصلة النهائية قضية بترول الخليج .

كان الغرب دائما على استعداد للحرب من أجل تأمين بترول الشرق الأوسط . في البداية بسبب أهميته الاستراتيجية، وفى النهاية لنفس هذه الأهمية الاستراتيجية مضافا اليها فوائضه . ولم يكن هذا سرا خافيا حتى على المعسكر الآخر الذى واجه الغرب بامتداد أربع حقب ، فقد كان الاتحاد السوفيتى يعترف للغرب بمصالحه البترولية، ويدرك بغير لبس أن بترول الشرق الأوسط هو أحد الأسباب الرئيسية التى يمكن أن تؤدى بالفعل إلى حرب نووية . وعندما وقعت ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق ، كان " جمال عبد الناصر " في يوجوسلافيا . وحين ذاع نبأ قيام الثورة ، أقدم الرئيس الأمريكي وقتها " دوايت ايزنهاور " على إعلان حالة الطوارىء فى القوات المسلحة الأمريكية. وأصدر أمره للأسطول الأمريكى السادس بالتوجه إلى الشواطىء اللبنانية، وإنزال قواته إليها تحسبا لردود الفعل فى ظرف اكفهر فيه المناخ الدولى فجأة . ووجد " جمال عبد الناصر " بمسئوليته القومية عن العمل العربى أيامها أن يستوثق من موقف الاتحاد السوفيتى حيال التطورات، فقصد إلى موسكو قبل أن يعود إلى المنطقة. وفى موسكو كان له لقاء ممتد بطول ١٨ ساعة مع الزعيم السوفيتى " نيكيتا خروشوف " ، وكان الجزء الأكبر من المقابلة إلحاحا من " خروشوف " على " جمال عبد الناصر " بأن يفعل كل ما فى وسعه لتهدئة الأمور في الشرق الأوسط . " فالثورة فى العراق وهو منتج رئيسى للبترول ، استفزاز كاف، وإذا لم يتدارك العرب آثاره بطمأنة الغرب على مصالحه البترولية، فإن العواقب قد تكون خطيرة . " وكان ذلك هو نفس رأى " جمال عبد الناصر " ولكن سماعه بهذا التفصيل، وبهذا الالحاح من " خروشوف " كان إضافة مهمة، وقد وصل " خروشوف " فى حديثه الصريح إلى حد أن قال لـ " جمال عبد الناصر " : " إننا لن نستطيع عمل أى شىء لمساندتكم إذا تأزمت الأمور بينكم ، وبين الولايات المتحدة الأمريكية، فأى تدخل من جانبنا قد يؤدى إلى حرب نووية لسنا على استعداد لمواجهة نتائجها " .

كانت الكويت درة ثمينة فى تاج البترول العربى ، وكانت هذه الدرة لحقب طويلة في حوزة بريطانيا التى كانت شديدة الحرص على الاستئثار بها إلى درجة من الحساسية عالية . وقبل إعلان استقلال الكويت كان السير " كولين كرو " - المسئول عن شئون الرعايا البريطانيين فى مصر أثناء قطع العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين فى أعقاب معركة السويس- يحاول قصارى جهده لإعادة العلاقات بين البلدين إلى حالتها الطبيعية.

وأثناء إحدى جلسات المفاوضات تقدم السير " كولين كرو " بطلب لفتح خمس قنصليات فى الجمهورية العربية المتحدة (التى كانت تضم مصر وسوريا).

و طلب " كولين كرو " من مفاوضيه أن تكون القنصليات المطلوبة فى القاهرة والاسكندرية والسويس ود مشق وحلب .

وفوجىء السير " كولين كرو " بالمفاوض المصرى أمامه يطلب بدوره خمس قنصليات فى بريطانيا، أو فى مناطق تسيطر هى عليها : لندن، وليفربول- ثم قنصلية في دار السلام ، وقنصلية فى عدن، وقنصلية فى الكويت، وكان رد فعله السريع والتلقائي : " أنه أى مكان الا الكويت " !

لم تكن بريطانيا على استعداد حتى لرؤية قنصلية عربية فى الكويت .

ولعل خشية بريطانيا . على الكويت كانت أكثر فى مواجهة العراق الذى اعتبر الكويت جزءاً من قضاء البصرة ، وأصر على هذا الاعتقاد على اختلاف العصور فى تاريخه الحديث من الملوك الهاشميين – الى قادة الثورات والانقلابات من العسكريين – الى الزعماء العقائديين لحزب البعث العربي . والشاهد أن الحرص البريطاني على الكويت كان إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من اهتمام عام وعالمي بمنطقة الخليج التي انتقلت اليها بؤرة الصراع العالمي في النصف الثاني من القرن العشرين ، بعد ان ظل هذا المركز حكراً لقناة السويس في النصف الأول من هذا القرن .

وكانت أهمية قناة السويس أنها عقدة المواصلات البحرية والشريان الحيوى للسيطرة الامبراطورية. وأما أهمية الخليج ، فقد تعدت ذلك وفاقته لأسباب عديدة أهمها أن البترول لم يجعل صراعات العالم حوله مسألة اتصالات أو مواصلات ، وإنما جعلها مسألة حياة أو موت للقوى الغالبة أو المطالبة بالغلبة .

وفى نفس الوقت ، فإن قناة السويس كانت تفقد أهميتها بسبب الغليان الذي أحدثه فوران حركة القومية العربية من حولها، كما أن الدوران حولها عن طريق رأس الرجاء الصالح جعل تفاديها ممكنا.

وأما الخليج، فقد كانت شطآنه لا تزال بعد هادئة، يصل إليها غليان المنطقة من بعيد صدى يمكن استيعابه، كما أن الدوران من حوله مستحيل لأنه بحر مغلق على نفسه ثم، وهذا هو الأهم، فإن كنز البترول المحيط به يجعل من درره النفيسة كلها- تاجا لابديل عنه لأى مطالب بسيادة العالم .

------- ٢ ---------------------------

إن منطقة الخليج شهدت قبل آلاف السنين مولد و ازدهار حضارات غابرة دفنتها رمال الصحراء . كما شهدت أحداثا كبرى غطت عليها رمال الزمان . كما عاشت أيام عز لم يبق لها من أثر بعد انهيار الخلافة العباسية إلا بقايا أساطير متناثرة فى قصص ألف ليلة وليلة عندما

كانت البصرة بأمرائها وتجارها، وجواريها ومغنيها - هى عاصمة الثراء والفن والترف على رأس الخليج .

لكن المنطقة بعد تلك الفترة المضيئة سقطت فى ظلام تحول إلى نوع من العزلة عن مجرى التاريخ العام، إلى حد بدت فية العزلة وكأنها نوع من الفراغ التاريخى والحضاري . ولم يكن ذلك دقيقا لأن المنطقة بموقعها بين حضارتين وأمتين (العرب والفرس) - كانت مستعصية على الفراغ وعلى العزلة، خصوصا وأنها على طريق البحار من الشرق الى الغرب وبالعكس ، فى مرحلة من التاريخ الانسانى كانت البحار فيها ساحة الصراع التجاري و الجغرافى والعسكري بين القوى المتنافسة فى العالم .

وعندما بدأ الغرب المسيحى (القرن الخامس عشر) يلتف حول القلب العربي الإسلامي ، كان الخليج بعيدا يواجه مصيره دون أن يلتفت إليه بالقدر الكافى أحد .

كان القلب العربى الإسلامى (مصر وسوريا) يقف حاجزا دون الغرب، ودون تجارة الشرق ، وضاعف من فاعلية هذا الحاجز أن القلب العربى الإسلامى كان مرتكزا في الشرق على الدولة المغولية الإسلامية فى الهند، ومستندا فى الغرب على الدولة- أو الدول الاسلامية فى الأندلس .

وحاول الغرب المسيحى فى الحروب الصليبية كسر الحاجز عند القلب، ولكنه فشل ، واستدار إلى الأطراف ، فإذا سقطت فى يده أمكن تطويق القلب وكسر الحاجز وازالته تماماً .

وتحقق النجاح فى الأندلس، وبهذا النجاح تمكن الغرب المسيحى من ركوب البحر الى الشرق بواسطة الطريق الجديد الذى فتحه " فاسكو داجاما " حول رأس الرجاء الصالح واصلاً الى مشارف " كلكتا " على شواطىء البنغال .

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت دول الغرب تتسابق إلى نهب آسيا ونزح ثرواتها على نطاق واسع . بدأت البرتغال ، ثم لحقتها هولندا، ثم فرنسا وبريطانيا .

واسست كل منها شركات للتجارة مع الشرق حمل معظمها اسم الهند بما له من سحر الاسطورة الشرقية المرصعة بالجواهر والمعطرة بالبخور، فكانت هناك شركة الهند البرتغالية ، و شركة الهند الهولندية، وشركة الهند الفرنسية، وشركة الهند البريطانية.

وكانت الأساطيل الحربية للدول المعنية تمخر عباب البحار الجنوبية بحذاء السفن التجارية ، تسبقها أحيانا، وتلحقها أحيانا أخرى .

واستطاعت بريطانيا أن تسبق الآخرين فى تنظيم التجارة وتوفير الحماية، وأنشأت تلك الظاهرة غير المسبوقة فى التاريخ ، وهى ظاهرة حكومة الهند التى أصبحت معقل الامبراطورية و مركزا للنفوذ وللقرار السياسى لا يقل أهمية عن مركز لندن . فقد كانت طبيعة وسائل المواصلات في ذلك العصر ، وحجم الغنائم، والمنافسة مع امبراطوريات اخرى طامعة- تفرض إعطاء " كلكتا " و " بومباى " و " دلهى " صلاحيات واسعة للتصرف دون انتظار أوامر من المركز الرئيسى بعيدا فى الجزر البريطانية.

ومع اتساع المصالح وازدياد النفوذ بدأ التفكير مرة أخرى فى الطريق البرى عبر العالم العربي الى الشرق ، وكان الدخول هذه المرة من الشرق إلى الغرب، من الخليج وليس من البحر

الأبيض. وبدأت أساطيل الغرب تظهر فى الخليج، قادمة من المحيط الهندي بنفس الترتيب : البرتغال فهولندا وفرنسا وبريطانيا. و استطاعت الامبراطورية العثمانية لفترة من الزمن أن تصد عن القلب العربى الإسلامى الذى انقضى فيه عهد المماليك العظام من أمثال " قطز " و " بيبرس " - - لكن دولة الخلافة في استانبول اعتراها الوهن ولم تعد حاميا، وإنما تحولت إلى إرث يطمع فيه الآخرون وينازعونه الحق فيما يملك من الأقاليم فى القلب العربى الإسلامى لدولة الخلافة ذاتها .

وكان العراق- بتركيبته الشهيرة فى التاريخ، والتى تضم ولايات بغداد والموصل والبصرة - واحدا من أهم هذه الأقاليم ، وكانت بغداد هى مقر الوالى فى العراق ، وكانت مسئوليته ممتدة إلى البصرة، وبعد البصرة إلى ما وراءها جنوبا فى الخليج ، وإلى حيث تستطيع قوته أن تمد سلطتها فى عمق الصحارى . ولم يكن باقيا فى هذه الصحارى إلا بعض قبائل " نجد " التى تصل إلى الشواطىء بين حين وآخر لتبادل منتجاتها مع التجار والصيادين الذين أنشأوا مراكز تجمع صغيرة عند نقاط متباعدة على شطآن الخليج تزورهم فيها أحيانا سفن قادمة من بحر العرب عبر مضيق " هرمز " تحمل إليهم بضائع يحتاجونها كالأقمشة والتوابل وغيرها .

كانت الكويت فى ذلك الوقت ميناءً طبيعياً واسعا على رأس الخليج . وكان من توابع ميناء البصرة، واستخدم فى بعض الأوقات بديلا له، وقام بجواره مركز سكاني صغير ، وبنى فيه حصن أطلق عليه اسم " الكويت " تصغيرا لكلمة " الكوت " ، وهى تعنى الحصن أو نقطة المراقبة والدفاع .

كانت بريطانيا أشد وأقوى الطامعين فى إرث الخلافة العثمانية وأهم ما فيه قلبه العربى الإسلامى من وادى الفرات إلى وادى النيل محفوفا بالشاطىء الشرقي للبحر الأبيض . وكانت حكومة الهند البريطانية هى التى بدأت تزحف بسلطتها أكثر من أي قوة أخرى بين القوى المتنافسة على تجارة الشرق وطرقها البحرية والبرية، وكانت دعواها فى ذلك الوقت تتمثل فى مبدأين : حماية حرية التجارة أولا، ثم مكافحة تجارة الرقيق والقرصنة ثانيا . وفى ظل هنين المبدأين تمكن الأسطول البريطانى من تدمير الملاحة التجارية العربية لبعض القبائل التى ظهر دورها فى تجارة البحر، وفى مقدمتها " القواسم " . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الامبراطورى اتصل الوكلاء البريطانيون ، وكان محتما أن يتصلوا، بعدد من زعماء القبائل الظاهرة فى " نجد " وشبه الحاكمة في صحاريها.

وكانت قبيلة " عنزة " واحدة من أقوى قبائل " نجد "، وإليها تنتمى كل الاسر التي ظهرت فيما بعد وحكمت، بى وصل نفوذها إلى شطآن الخليج ومراكزها السكانية المتناثرة .

وكان فرع " العتوب " من قبيلة " عنزة " ، واحدا من أهم فروع هذه القبيلة ، واليه ينتمى " آل الصباح " النين حكموا الكويت فيما بعد . ولم ينشأ هذا الفرع فى الكويت ، وانما ظهر في " نجد " وتبدى نشاطه مثل نشاط غيره فى الاغارة على طرق القوافل، أو حمايتها بإتاوة حسب متغيرات الظروف.

وتشير دائرة المعارف الإسلامية **[طبعة سنة ١٩٦٠ والصادرة عن جامعة " ليدن " في هولندا ، وهي أهم مراكز الدراسات الاسلامية في أوروبا]** إلى أن فرع " الصباح " دخل فى عراك مع غيره من فروع " العتوب " و " عنزة " ، وكان أن جرى إبعاده عن " نجد " ومطاردته خارجها ، فرحل

بخيامه وأغنامه شمالا إلى منطقة " أم قصر " فى العراق ، ولكنه هناك عاد يواصل غاراته على طرق القوافل، مما دعا الحاكم باسم الخلافة فى بغداد إلى طرد " آل الصباح " من " أم قصر " بسبب شكاوى الفلاحين وسكان القرى ، وكان الرحيل من " ام قصر " ولكن الذين رحلوا لم يكن فى مقدورهم أن يعودوا إلى " نجد " بسبب ثاراتهم القديمة هناك ، وتوقفوا في منتصف الطريق أمام الكويت .

وكانت الكويت بسبب مينائها الطبيعى كواحد من مراكز التجارة البحرية على الطريق الى فارس والى العراق ، وتكون فيها مجتمع من التجار كانت حياة معظمهم فوق السفن ، وكان قدرهم ان يتركوا عائلاتهم فى الكويت ، وأن يذهب الرجال إلى البحر على سفن التجارة ، او لصيد السمك أو اللؤلؤ. وفى ظرف الغياب وراء البحر فإن عائلات المسافرين (العوائل كما يسمونها) تحتاج إلى الحماية، ووجد تجار الكويت أن " آل الصباح " يستطيعون القيام بهذا الدور مؤتمنين عليه، وكان أن تم الاتفاق معهم والتراضي .

لم تكن الاسرة حاكمة بالمعنى المعروف ، ولكنها كانت مختارة لمهمة مقابل جزء معلوم من ارباح التجارة .

وفى ذلك الوقت كانت ردود فعل الصراع الكبير على مقادير الشرق الأوسط تصل الى المنطقة وتؤثر فيها . ومن مفارقات التاريخ أن الصراع الذى جرى وانتهى بالحملة الفرنسية على مصر ، ثم الاحتلال البريطانى لها- ظهرت بوادره فى الخليج .

فعندما جاء " نابليون " إلى مصر- وهدفه النهائى هو الهند- كان من أول قراراته فيها إرسال مبعوث إلى مشايخ قبائل الخليج ووكلائهم فى موانيه الصغيرة . وقد دعم خطوته تلك بأمر إلى قوات من الاسطول الفرنسي لشركة الهند الشرقية الفرنسية بأن ترسل بعض سفنها المزودة بمدافع كبيرة الى منطقة الخليج . وكان الذى تولى مهمة صد هذه السفن عن دخول الخليج أسطول بريطانى تتقدمه الفرقاطة " Sea Shore " - " شاطىء البحر " - المعقود لواء قيادتها للكابتن " نلسون " الذى قدر له فيما بعد أن يدمر أسطول " نابليون " فى خليج " أبو قير " ثم يهزمه نهائيا فى معركة " ترافلجار " (الطرف الأغر) ، أي أن المبارزة البحرية بين " نابليون " و " نلسون " بدأت أولاً أمام الكويت، ثم تفاقمت أمام الاسكندرية، ثم جرى حسمها قرب الشاطىء الأسبانى على مرمى حجر من أوروبا !

وعلى الناحية العربية فإن المصائر اتحدت، فقد كان والى بغداد " سليمان " (باشا) هو الذى تولى فى هذه الفترة جمع نصف مليون جنيه من الذهب لتمويل الحملة العثمانية التى كانت تريد إخراج " نابليون " من مصر.

ومما يلفت النظر أن أول إنذار تلقاه " محمد على " (باشا) والى مصر الكبير من القوى الأجنبية التى أقلقتها سياسته- هو الإنذار الذى وجهته إليه بريطانيا سنة ١٨٣٨ بأن يسحب الجيش المصرى من الكويت . وكان هذا الجيش قد وصل إلى الكويت في إطار الحرب مع الوهابيين فى " نجد "، وبقى هناك مدة أربع سنوات تشغله المخاطر التي تحوم حول الخليج والمطامع التى تتهدده، وقد أدرك " محمد على " بحشه الاستراتيجي أن هناك صلة وثيقة بين ما يجرى هناك فى مياهه أمام الكويت، وما يجرى هنا فى البحر الأبيض أمام الاسكندرية .

ولم تكن بريطانيا على استعداد لترك " محمد على " لأفكاره وخططه، وكان أن وجهت إليه إنذاراً بالخروج من الخليج ، وكانت تلك مقدمة للانذار النهائى الذي تجمعت أوروبا فيه لكى تضرب هذا الحالم بتجديد شباب الخلافة، والمتطلع إلى عرشها - وتفرض عليه الاستسلام بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠.

إلى هذه الدرجة كان تداخل الصراعات على مشارف القرن التاسع ، وحتى نهايته . وقرب هذه النهاية طرأ عنصران :

العنصر الأول : بوادر احتمالات لظهور البترول فى الخليج .
والعنصر الثاني : الانهيار الكامل لدولة الخلافة، وقيام كيانات عربية كبيرة تستعيد استقلالها من جديد بعد انقضاء عصر الخلافة.

وتعارض مطلب تأمين البترول للقوى الكبرى المتنافسة على الخليج بكل مافيه ، مع مطلب الكيانات السياسية العائدة، والتى تبدت نزعتها الطبيعية إلى تأكيد ولايتها على ما تعتبره إقليمها. وكان هذا الصراع أشد ما يكون فى الكويت.

وبدأت الحكومة الجديدة فى العراق تطالب، وفى نفس الوقت فإن بريطانيا مضت ترسم الخرائط ، وكأنها تجرى بالخطوط والألوان على صفحات بيضاء ، أو صفراء بلون الرمال !
وكانت بداية العملية أن شيوخ القبائل النافذة فى المواقع الغنية، أو المحتملة الغنى أصبحوا حكاما بمقتضى اتفاقيات قاموا بتوقيعها مع ممثلى حكومة الهند ووكلائها. وبمقتضى هذه الاتفاقيات التى تم توقيعها فى فترة الانتقال من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين تعهد الشيوخ بأن يوالوا من يوالى الامبراطورية البريطانية، وأن يعادوا من يعاديها ، وألا يسمحوا بدخول قوة أجنبية أخرى إلى موانيهم وشواطئهم، وألا يتنازلوا عن شيء من الاراضي التى وضعت تحت سلطتهم لأى طرف آخر مهما كان .

وكان بسط السيطرة على طرق التجارة إلى الشرق هو البداية ، وتلاه الصراع مع الدول الطامعة فى المستعمرات (وبينها فى ذلك الوقت روسيا وألمانيا أيضا)، ثم أضيف الى ذلك عنصر أكثر أهمية، وأكثر اتصالا بالقرن العشرين، وهو عنصر: البترول .

كان هذا العنصر الملتهب هو الذي راح يؤدى إلى توترات حادة ليس فقط بين القبائل التقليدية في الخليج ، وبين الدول الجديدة الناشئة حوله- وإنما أيضا بين الشيوخ أنفسهم . فقد دبت الفرقة بينهم على تعيين حدودهم بعضهم مع بعض ، وفى مرات كثيرة جرى تخطيط الحدود بين المشيخات المختلفة على أساس روايات صيادين عن المواقع التى كانوا ينشرون فوقها شباك الصيد لتجف ، أو المواقع التى مشت فوقها قافلة جمال ، أو صدت عندها غارة بدو على مضرب خيام .

لم تكن المنطقة تعرف الحدود ، وكانت على حد تعبير " روبرت هي " المقيم البريطاني فيها اثناء الخمسينات : " بحار من الرمال تعبرها القوافل مثلما تعبر السفن بحار الماء ، دون ان تترك وراءها أثراً . "

ولم تكن فكرة الحدود من الأساس موجودة تفصل كيانا سياسيا عن كيان سياسى آخر. وكان الفصل في المنازعات بين شيوخ القبائل من اختصاص حكومة الهند ومفوضها المقيم في الخليج . **[الدكتورة روز ماري زحلان ، في كتابها عن " صنع الدول الجديدة في الخليج " صفحة ١٧]**
وكان مفوض حكومة الهند فى الخليج " برسى كوكس "، وهو وقتها ضابط برتبة ماجور ، هو الذي أمسك بقلمه الأحمر ، وجرى به على الخرائط خطوطاً ليقول بعدها للمشايخ : " هذه هى حدودكم الجديدة " . ولم يكن بعضهم راضيا، خصوصا في رسم الحدود بين الكويت والسعودية . وهنا خرج " برسى كوكس " باختراعه الشهير عن المناطق المتهادنة والمناطق المحايدة، وغير ذلك من التعبيرات والاصطلاحات .

ووصلت الخلافات والصراعات بين المشايخ وضرورات احتوائها إلى درجة اقتضت أن يجيء نائب الملك في الهند ، اللورد " كيرزون " ، وأن يجمع المشايخ سنة ١٩٠٣ وان يلقى فيهم خطابا يعتبر من المأثورات فى أدب العصر الاستعمارى . فقد قال اللورد " كيرزون " : **[مجموعة وثائق وزارة المستعمرات ، وقد توزعت بعد ذلك على عدد من الوزارات انتقلت اليها العلاقات مع المستعمرات السابقة . ونص هذا الخطاب للورد " كيرزون " منقول من مجموعة من هذه الوثائق نشرت في لندن سنة ١٩٧٥ بعنوان " السياسة البريطانية في الخليج " .]**

O إن الحكومة البريطانية قامت خلال المائة سنة الماضية بإنشاء نظام لحفظ السلام العالمي ، وقد وافقتم على أحكامه. ونتيجة لهذا قامت بينكم وبين حكومة الهند علاقات ، وأصبحت بمقتضاه الحكومة البريطانية هى السيد والحامي فى بلادكم . ولقد قدمتم لها ولاءكم دون أية قوى أخرى . وفى بعض الأحيان أشعر انكم تتعرضون لخطر النسيان . وربما يكون بينكم من يسأل نفسه لماذا تريد الحكومة البريطانية أن تمارس هذه الصلاحيات؟ ان الجواب على هذا السؤال يظهر أمامكم اذا تذكرتم تاريخ بلادكم وتاريخ عائلاتكم وقارنتم بين ما كان وبين ما هو كائن اليوم . إن بريطانيا العظمى كانت هنا قبل أن تطل أى قوة أخرى على هذه المياه . ولقد كان كل شىء فوضى، وكنا نحن الذين منحناكم نظاما. وكانت التجارة مهددة ، وكان أمن أسركم مهددا، وكنا نحن الذين منحناكم الحماية. وهنك رعايا لصاحب الجلالة ملك بريطانيا على هذه الشواطىء يعيشون ويتاجرون . عليكم ان تتذكروا أن امبراطوريتنا الهندية العظمى تقع على مقربة منكم ، وواجبنا أن نحميها ، وان نحميكم أنتم أيضا. اننا أنقذناكم جميعا من الإبادة على أيدى جيرانكم، ونحن الذين فتحنا المسالك البحرية لسفن الأمم الأخرى كى تجىء اليكم هنا فى سلام . اننا لم نغتصب أرضا لكم، ولم ندمر سيادتكم ، و انما حافظنا على ذلك كله، ولابد ان تدركوا أننا لا ننوى أن نضيع قرنا كاملا مكلفا من النصر والرخاء لأى سبب . ولن نترك هذه الصفحة من التاريخ لتطوى . ان أمن هذه المياه سوف تجرى المحافظة عليه . واستقلالكم سوف يضمن طالما بقى نفوذ الحكومة البريطانية فوق أى نفوذ هنا .

وكان اللورد " كيرزون " فى هذا الخطاب يستهدى بالمقولة الشهيرة المأثورة عن الملك " عبد العزيز آل سعود " التى وردت فى حديثه مع الكاتب والرحالة اللبناني الشهير " أمين الريحاني " (١٩٢١) والتى قال فيها " هؤلاء البدو لايعرفون من الدنيا غير شيئين - السيف والذهب " . وفى حين أن خطاب اللورد " كيرزون " ، كان تلويحا بالسيف، فإن الذهب كان حاضرا، إذ أن الحكومة البريطانية كانت تعطى الملك " عبد العزيز " نفسه خمسة آلاف جنيه من الذهب كل سنة، كما كان حاكم الكويت يتقاضى مبلغا أقل .

وكان الذهب الأصفر ظاهرا فى ذلك الوقت، لكن الذهب الأسود بدأ يصبح عنصرا أكبر وأخطر في مصائر الخليج منذ ذلك الوقت ، وحتى حرب البترول الكاملة الأولى سنة ١٩٧٣ .

كان استعمال البترول على أساس تجارى قد بدأ فى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت بداية استعماله التجارى كوقود للاضاءة . وعندما ظهرت بوادر اختراع محرك للاحتراق الداخلى أصبح البترول وقود كل حركة . وفى وقت مبكر اكتشف البريطانيون أهمية البترول فى العصر الصناعى الجديد . وربما كان ذلك بين الاسباب التى دعت " ديزرائيلى" رئيس وزراء بريطانيا فى السبعينات من القرن الماضى الى شراء حصة الخديوى " اسماعيل " فى شركة قناة السويس . فقد ظهرت فى ذلك الوقت احتمالات لشحن البترول داخل بعض أنواع من البواخر، تطورت فيما بعد لتصبح الناقلات . وكان وسيط " ديزرائيلي " فى شراء الحصة المصرية فى شركة قناة السويس هو " روتشيلد " صاحب البيت المالي العتيد الذى كانت له مصالح وقتها فى بترول القوقاز، وكان ذلك فى الواقع دافعه الى تمويل الصفقة ! **[كتاب " الجائزة " لـ " دانيل بيرجين " ، وهو واحد من أفضل وأكمل المراجع عن بترول الشرق الأوسط ، وقد نشرته دار " سيمون وشوستر " سنة ١٩٩١ .]**

كان البحث المحموم عن البترول قد أسفر فى نهاية القرن الماضى عن وجود ثلاثة مراكز رئيسية لانتاجه هى أمريكا الشمالية، والقوقاز جنوب روسيا، وجزر الهند الشرقية التى كانت مستعمرة هولندية فى ذلك الوقت . وقبل أن تنطوى صفحة القرن التاسع عشر ليطل القرن العشرون ، كانت الشواهد في الشرق الأوسط ، وبالذات على شطآن الخليج ، مشجعة. وكانت بريطانيا قد أعدت نفسها فى هذه المنطقة وأمسكت فى حزم بمقاليد الحكم ، ذلك أن مواقع البترول الأمريكية كانت تحت سيطرة الولايات المتحدة ، وهى الدولة التى راح نجمها يعلو فى ذلك الوقت . كما أن القوقاز كان في ملكية امبراطور روسيا ، ثم إن اندونيسيا كانت فى ملكية هولندا . وبالتالى بدت بريطانيا بعيدة عن المواقع الغالية الصانعة للقوة فى القرن العشرين . ولقد تشجعت الحكومة البريطانية عندما تمكن " روتشيلد " من امتلاك حصة مؤثرة فى شركة " شل " الهولندية التي تملك امتيازات النفط فى اندونيسيا . ثم استغل وضعه في مجلس إدارة الشركه كأحد ملاكها ، وطالب بنقل حمايتها إلى الأسطول البريطانى قائلاً : " إن العلم البريطانى اقوى من العلم الهولندى . وعلى البترول أن يجد لنفسه العلم الذى يحميه ". ومع سعادة الحكومة البريطانية بهذا الترتيب الذي أعطاها نوعا من المشاركة فى بترول اندونيسيا، فإنها كانت مصرة على أن يكون لها بترولها الخاص الذى تملكه تماما بدون شريك . وزادت أهمية ذلك حينما تحول الأسطول البريطانى من استعمال الفحم إلى استعمال البترول سنة ١٩١٢ قبل الحرب العالمية الأولى بسنتين اثنتين . وكان " ونستون تشرشل " هو وزير البحرية وقتها الذي أشرف على هذا التحول الخطير، وتسمجل وثائق البحرية البريطانية خطاباً قصيراً موجهاً منه إلى قائد الأسطول البريطانى اللورد " فيشر " جاء فيه : **[محفوظات الادميرالية البريطانية . الصندوق الخاص بتحويل الاسطول البريطاني من الفحم إلى البترول ، وهو صندوق يحتوي على ١١٧ ملفاً من التقارير والمراسلات .]**

O عزيزي فيشر
ما هو مطلوب من الأسطول الان ، وفى المدى المنظور هو ضمان وصول البترول الى بريطانيا العظمى :
O رخيص في حالة السلام .
O مؤكد في حالة الحرب

امضاء
ونستون

كانت بريطانيا فى ذلك الوقت قد حصلت على بترول إيران (" فارس ") وذلك عن طريق عقد وقعه " ويليام دارسى " [**مغامر ومموِل بريطاني مولود في استراليا ، وقد لعب دوراً كبيراً في عمليات بترول الشرق الأوسط .]** مع واحد من أواخر ملوك أسرة " كاجار " وهو الشاه " اسماعيل "، وبمقتضاه أنشئت شركة البترول البريطانية- الفارسية. وفي اليوم الذي انتهت فيه الحرب العالمية الأولى كان اللورد " ادوارد جراى " وزير الخارجية البريطانية يكتب مذكرة لمجلس الوزراء عن السياسة البريطانية بعد الحرب يقول فيها " إن سيادة بريطانيا في الخليج يجب أن تكون مؤكدة ، فهذه السيادة تساوى تماما قوة الأسطول البريطاني ، وقوة هذا الاسطول تعنى قوة بريطانيا ". وفى أثناء مناقشات مجلس الوزراء بعث " ونستون تشرشل " بمذكرة إلى المجلس يقول فيها " إن حكومة صاحب الجلالة يجب ان تتحسب وهى تفكر فى المستقبل وترتب له ، ذلك أنه قد يجيء يوم تصبح فيه منابع البترول المملوكة لنا ينابيع سخط علينا ". والغريب أن " ونستون تشرشل " كان هو بالضبط وزير المستعمرات الذى أوكلت إليه مهمة رسم الخرائط الجديدة فى المنطقة بما فيها حزائط الاستقلال ، وخرائط التقسيم ، و خرائط الانتداب ، وخرائط الحماية . وكان " تشرشل " فى ذلك الوقت هو صانع العروش فى المنطقة، وكانت خريطة البترول واحتمالاته مصدر الوحي فيما فعل .

كان الاندفاع الأمريكى إلى عصر البترول أسرع . ففى الحقبة الثانية من القرن العشرين - على سبيل المثال - زاد عدد السيارات فى أمريكا من ١.٨ مليون سيارة سنة ١٩١٤ الى ٩.٢ مليون سيارة سنة ١٩٢٠. وبالطبع كانت هذه الحركة و احتمالاتها المتزايدة مع كل يوم تخلق طلبا على البترول يبدو بلا نهاية. وقد عبر الرئيس الأمريكى " وودرو ويلسون " عن ذلك بقوله " إننى أرى أن أمريكا وقعت فى غرام السيارة فى أول لحظة وقعت عينها عليها "، وكانت الخطوة التالية بضرورات الأمور هى " خروج الولايات من حدودها طلبا للبترول ". وفى مؤتمر " سان ريمو " سنة ١٩٢٠ ضغط " وودرو ويلسون " من أجل مشاركة بين بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية فى بترول العراق الذى جرى وضعه تحت الانتداب البريطانى . و رفضت الحكومة البريطانية هذا الضغط رفضا قاطعا. وتسجل محاضر مؤتمر " سان ريمو " عبارة وردت فى رسالة من الرئيس الأمريكى إلى الحكومة البريطانية يقول فيها " إنكم تريدون ممارسة نوع من الاستعمار أصبح " موضة " قديمة . "

وبدأت الثلاثينات من هذا القرن ، وقد قررت الحكومة الأمريكيه أن تعطي نفسها حق المنافسة على بترول الشرق الأوسط . وتمكن المليونير الأمريكي الشهير " ويليام مبللون " من عقد صفقة مع الشيخ " أحمد الجابر الصباح " شيخ الكويت في ذلك الوقت . كان الشيخ " أحمد " غاضباً على الشركات البريطانية ، لأن الشركات البريطانية عثرت على البترول في البحرين قبل العثور عليه في الكويت . وقال الشيخ " أحمد " لرئيس مجلس إدارة شركة شل (طبقاً لوثائق هذه الشركة) : " ان ظهور البترول في البحرين قبل ظهوره في الكويت طعنة خنجر في قلبي " كان الشيخ متلهفاً للبترول لأن موارد بلده في ذلك الوقت تدنت فجأة بسبب نجاح " ميكى موتو " اليابانى فى التوصل إلى تربية اللؤلؤ صناعياً فى مزارع بحرية خاصة، وكان صيد اللؤلؤ الطبيعى أيامها أهم مصادر الدخل فى الكويت . وقد حاولت بريطانيا أن تمنع هذه الصفقة بين الشيخ " أحمد " و " ميللون " مالك شركة " جولف " ، ولكن الحكومة البريطانية كانت قد تأخرت ، وكان عليها أن تقنع بنصف بترول الكويت الذى كانت تحسبه ملكا خالصا لها . وقد أبدى المقيم البريطانى فى الكويت أسفه على ما جرى فى تقرير ختمه بقوله " إن ميللون اغتصب بترول الكويت بوضع اليد " !

وفى سنة ١٩٣٣ سارعت شركة شل البريطانية إلى الاتفاق مع الملك " عبد العزيز آل سعود " قبل أن يصل الأمريكان . وكانت الدفعة الأولى التى تقاضاها الملك هي ٣٠ ألف جنيه استرلينى بصفة قرض ، و ٥ آلاف جنيه استرلينى بصفة حقوق عن السنة الاولى من عقد الامتياز. ولكن احتمالات البترول فى السعودية استعصت على فرق البحث والاستكشاف التابعة لشركة شل . وكان أحد مهندسيها الجيولوجيين ، وهو سويسري اسمه " كادمان " ، قد كتب تقريرا يقول فيه إنه يشك فى احتمالات وجود أى بترول له قيمة في السعودية. وبدأت شركة شل تفكر فى الانسحاب من السعودية ، وكتب رئيسها الى مجلس إدارتها تقريرا يزكى فيه فكرة الانسحاب بناء على ثلاثة أسباب محددة : " ان طلبات الملك المالية كثيرة - إن بريطانيا لديها الكثير من بترول الشرق الأوسط على أى حال (في العراق وايران) - وإن النفوذ السياسى البريطانى فى العالم العربى قادر فى أى وقت على ان يعود، ويطالب بما يشاء. "

وكانت نذر الحرب العالمية الثانية قد بدأت تلوح فى آفاق العالم مع صعود نجم " هتلر " فى ألمانيا، وتحالفه مع " موسولينى " .

كانت أهم المعارك والتحركات فى الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء والمحور من إملاء البترول، فهو وحده كان أعظم ماريشالات تلك الحرب ومصممى استرتيجيتها .

إن " هتلر " كسر معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء بيده وبين " ستالين " لأنه كان يريد بترول القوقاز . قبلها كان قد دخل رومانيا، وخاض فى عمق البلقان جريا وراء البترول الرومانى .

ثم إن الجنرال " توجو " رئيس وزراء اليابان فى الحرب بادر إلى مهاجمة الولايات المتحدة فى " بيرل هاربر " ابتداء لشدة حاجة " اليابان " إلى بترول " اندونيسيا " .

ولقد خسر الماريشال " روميل " قائد الفيلق الأفريقى الألمانى- كل أفريقيا بسبب حصار البترول الذى ضرب عليه، وركز على ناقلاته العابرة إليه (أثناء معركة العلمين) من أوروبا الى افريقيا.

كذلك استمات الحلفاء فى الدفاع عن مصر، وعن قناة السويس لأنه من ورائها يصبح الخليج مفتوحاً على الآخر بكل موارده البترولية أمام ألمانيا .

وبعد الحرب العالمية الثانية خرجت الولايات المتحدة من ميادين القتال ، وهى القوة العالمية الأولى باعتبارها صاحبة أكبر نصيب فى جهد الحلفاء لكسب الحرب . ولم يكن الأمر أمر سلاحها المتقدم، ولا إنتاجها الصناعى الضخم، ولا أموالها الطائلة فقط – ولكن قبل هذا كله كان السبب هو بترولها. كانت الطرق قد انقطعت بين بترول الشرق الأوسط (فى ايران والعراق) وبين ميادين الصراع فى أوروبا، ولم يكن بترول الخليج قد دخل مجال الانتاج بعد ، وأصبح البترول الأمريكى هو عصب الحرب ووقود آلتها الجبارة . وتظهر حقائق الحرب العالمية الثانية أن المعارك التى دارت فى أوروبا لتحقيق النصر النهائي ضد النازية اعتمدت بحجم ٩١% على بترول أمريكى زحفت به الدبابات، وانطلقت المدافع ، وحلقت الطائرات، وتحركت الأساطيل . وكان هذا عبئا كبيرا على الموارد الأمريكية التى كانت قبل الحرب متخوفة بالفعل من الضغط الشديد على مخزوناتها وعلى احتياطياتها، وقد أحست أن ضرورات الاقتصاد والأمن تحتم عليها الآن أن تبدأ زحفا منظما على موارد البترول وراء البحار .

كان " هارولد ايكس " وزير الداخلية الأمريكى والمسئول عن شئون البترول، هو الذى وقف سنة ١٩٤٣، والحرب العالمية مازالت دائرة- يلفت نظر الرئيس الأمريكى " فرانكلين روزفلت " إلى أن البترول سلعة استراتيجية : " حيوية فى الحرب، وضرورية في السلام ، ولازمة للنفوذ العالمى " - كما جاء فى نص تقريره لـ " روزفلت " . ثم يضيف " ايكس " الى ذلك قوله : " الولايات المتحدة مهددة بأن تتحول لمستورد للبترول ، وعليها أن تستعد لهذا الوضع " .

ويروى " هارولد ايكس " في مذكراته أنه وكبار مستشارى " روزفلت " كانوا يجلسون فى البيت الأبيض ساعات يناقشون عالم ما بعد الحرب . ومضى يقول : " كنا نضع البوصلة على أى موقع فوق مائدة الاجتماع ، وحيثما وضعناها فإن ابرتها كانت تقفز تلقائيا الى ناحية الشرق الأوسط " .

ومضى "روزفلت " يضغط على " تشرشل " من أجل نصيب أمريكى كبير فى بترول الشرق الأوسط . وكان " تشرشل " يحاول أن يقاوم، وكانت المقاومة غير مجدية لأن " روزفلت " كان أيضا مصمما، وكانت بريطانيا هى الطرف الأضعف . واحتج اللورد " بيفر بروك " وهو وقتها عضو فى وزارة الحرب مع " تشرشل "، وكتب له مذكره يقول فيها : " إن حقنا فى بترول الشرق الأوسط هو الشىء الوحيد الذى تبقى لنا كقوة عظمى . ويجب أن نمنع الولايات المتحدة من الاستيلاء عليه ". ورد عليه " تشرشل " فى مذكرة قصيرة يقول فيها : " إننى أفهمك ، ولكنى أخشى أن عالم ما بعد الحرب قد ينهار إذا دخلناه ونحن فى معركة مع الأمريكان حول البترول " .

ويبعث " روزفلت " بلجنة رئاسية خاصة لزيارة الشرق الأوسط ، وتقوم اللجنة الرئاسية بزيارة إيران والسعودية والكويت والبحرين وقطر، وتعود لتقدم للرئيس تقريراً يبدأ بالعبارة التالية : " إن بترول الشرق الأوسط هو أعظم كنز تركته الطبيعة للتاريخ ، والتأثير الاقتصادى والسياسى لهذا الكنز سوف يكون فادحاً . ويجلس " جيمس بيرنز " وهو وقتها وزير للخارجية ، ويسأل " روزفلت " مباشرة : " سيادة الرئيس ، ما هى الحصة التي ينبغى أن تسيطر عليها الحكومة الأمريكية من بترول الشرق الأوسط؟ " و يسكت " روزفلت " ويروح يفكر صامتا، ويطيل التفكير لعدة دقائق طبقا لرواية " جيمس بيرنز " ، وأخيرا يقول موجها كلامه لوزير خارجيته : " جيم ... لا أقل من ١٠٠% " . ويسارع " هارولد ايكس " بعدها ويكتب لـ " روزفلت " يقول له " إن الشرق الأوسط مجرة كونية هائلة من حقول البترول لا يعرف أحد لها نظيرا فى الدنيا ". ثم يضيف " ان السعودية هى بمثابة الشمس فى هذه المجرة، فهى أكبر بئر بترول فى الشرق الأوسط ، والظروف فيها الآن مناسبة ، وملكها ابن سعود يريد شيئين : مالا يصرف منه، و ضماناً يكفل استمرار العرش فى أسرته. ويجب أن تكون الولايات المتحدة هى التى تمنحه المطلبين ".

وتحصل الولايات المتحدة على بترول السعودية بموجب اتفاق مع الملك " عبد العزيز " ، وقعه الملك مع مجموعة " أرامكو " المكونه من أربع شركات هي " نيوجيرسى " و " سوكونى " و " سوكال " و " تكساكو ""بنسبة ٢٥% لكل منها – ١٠٠% لأمريكا . وكان " روزفلت " هو الذي مهد بنفسه للاتفاق مع الملك " عبد العزيز " أثناء اجتماع رتب بينهما على ظهر الطراد الأمريكى "كوينسى " فى مياه البحيرات المرة وسط قناة السويس . وطار " ونستون تشرشل " رئيس وزراء بريطانيا ليلحق بالملك " عبد العزيز " فى مصر لعله يعرقل الاتفاق ، ولحقه فعلا فى الفيوم، ولم يسمع منه اجابة نافعة. وحين عاد." تشرشل " إلى لندن لامه بعض وزرائه على

أنه لم يقدم للملك أثناء لقائه به هدية طبقا لما تقضى به التقاليد العربية فى رأيهم ، فى حين أن الملك قدم له مجموعة من المجوهرات هدية لأسرته . واحتار " تشرشل " ماذا يفعل ، فلم يكن تحت تصرفه في رئاسة مجلس الوزراء البريطاني أي اعتماد للهدايا ، وكان الحل الذي وجده هو أن يكلف مكتبه ببيع المجوهرات التى أهداها الملك إليه، ثم تشترى سيارة من طراز " رولز رويس " بمبلغ ٩٠٠ جنيه استرلينى وترسل هدية منه لملك السعودية .

وعندما بدأت الولايات المتحدة فى مشروع " مارشال " لإعادة الحياة لأوروبا المحررة والمدمرة بعد الحرب- كان البترول العربى بالتحديد هو البند الرئيسى فى مشروع " مارشال " ، فقد كان الهدف الأستراتيجى للمشروع أن يتحول اقتصاد أوروبا الجديد من اقتصاد فحم الى اقتصاد بترول .

ويمكن تقدير أثر بترول الشرق الأوسط فى حقيقة أنه فى بداية مشروع " مارشال " سنة ١٩٤٦، كانت أوروبا تعتمد على البترول الأمريكى بنسبة ٧٧% من احتياجاتها، وبعد خمس سنوات ، أى فى سنة ١٩٥١، كانت أوروبا تعتمد على بترول الشرق الاوسط بنسبة ٨٠% من استهلاكها.

ثم انتهزت الولايات المتحدة فرصة أزمة إيران (١٩٥١- ١٩٥٣) وتدخلت فيها بتدبير انقلاب ضد الدكتور " محمد مصدق "، وحققت لنفسها هدف السيطرة على البترول الايراني ، وبذلك أحكمت قبضتها على بترول الشرق الأوسط كله من العراق إلى إيران، ومن الخليج إلى السعودية.

وأصبحت الشركات الأمريكية فى المنطقة عمالقة بترول وسياسة فى نفس الوقت . وقد تجلى ذلك فى تشكيل مجالس إداراتها التى عبئت بمجموعات من كبار المسئولين السابقين في وزارة الدفاع ، و هيئة أركان الحرب المشتركة و المخابرات المركزية ووزارتى الخزانة والطاقة .

ذلك بالطبع إلى جانب مجموعات من رجال البترول فى تكساس وأساطين البنوك في نيويورك . وهكذا تداخلت السياسة والبترول فى كل عناصر القرار فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان حجم هذه الشركات الأمريكية وامكانياتها الاقتصادية والمالية خرافيا. فقد سيطرت على كل عمليات الانتاج والتكرير والنقل والتوزيع، وأعطت لنفسها مرونة فى التصرف ، فبكل تلك الموارد الاقتصادية تحت أمرتها أصبح فى مقدورها أن تعاقب دولة بتخفيض انتاجها ومن ثم دخلها، وهى واثقة من أنها تستطيع زيادة الضخ فى بلد آخر، والمحافظة بالتالى على مستوى أرباحها. وقد كان ذلك هو ما حدث بالضبط أثناء أزمة ايران ، وادى إلى افلاسها تمهيدا للانقلاب من الداخل على حكومة " مصدق " تنفيذا للخطة المشهورة باسم " اجاكس " . وقد استطاعت هذه الشركات بفضل هذا النوع من القوة والمرونة أن تحقق لنفسها أرباحا خيالية . فقد كان دخل " أرامكو " على سبيل المثال من البترول يزيد ثلاث مرات على د خل المملكة السعودية، وهى المالك الأصلى لهذا البترول . ومثال آخر، فإن ميزانية شركة البترول الإيرانية البريطانية لسنة ١٩٥٠ أظهرت أن الشركة حققت أرباحا مقدارها ٢٥٠ مليون جنيه استرلينى، بينما كان النصيب الذي حصلت عليه الحكومة الإيرانية ٩٠ مليون جنيه فقط .

--------------------------- ٤ -------

فى الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٧٢ زاد إنتاج بترول الشرق الأوسط بنسبة ١٥٠٠ فى المائة . وفى هذه الفترة كانت بعض الدول الأوروبية الكبرى تحاول الإفلات من القبضة الأمريكية القوية فى مجال السيطرة على بترول الشرق الأوسط .

حاولت ايطاليا عن طريق إنشاء مؤسسة " اينى " ، لكن " انريكو ماتيه " رئيس مجلس إدارة "اينى" لقى مصرعه فى حادث طائرة غامض - وتعطلت مشروعات ايطاليا .

وحاول الجنرال " شارل ديجول " فى بداية الستينات، وقال مرة فى اجتماع لمجلس وزرائه : " لا أريد لفرنسا أن تعتمد فى بترولها على بقالين يبيعونه لها . وإذا كان لفرنسا أن تبقى عظيمة كما هى ، فعليها أن تجد لنفسها بترولا يكون تحت سيطرتها الكاملة " .

وجربت الدول المنتجة للبترول ذاتها أن تزيد دورها فى المشاركة فى عمليات البترول ، وكان قائد المحاولة " بيريز ألفونسو " وزير خارجية فنزويلا ، و " عبد الله الطريقى " ، وزير البترول السعودى . وتقدم " بيريز ألفونسو " ، بفكرة إنشاء منظمة تنسق جهود الدول المصدرة للبترول. وجرى اجتماع لهذا الغرض في بغداد يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٠ . وبدأت عملية إنشاء مؤسسة " أوبك " . وكان " عبد الله الطريقي " يقول " ان البترول مورد قابل للنفاد، ودخولنا منه تتبدد، وفرصة التنمية تضيع . " - لكن " اوبك " لم تستطع أن تؤكد نفسها لعدة أسباب ، منها الخلافات بين المنتجين فى أمريكا اللاتينية والمنتجين العرب ، كما أن العلاقات كانت متوترة باستمرار بين " فيصل " ملك السعودية ، و " محمد رضا بهلوى " شاه إيران ، ثم ان الشركات راحت تهدد الطرفين بالبحث والتنقيب فى مواقع أخرى . وقد كانت تلك هى الفترة التى شهت اكتشاف البترول فى ليبيا و النيجر والجزائر . ولم تكن القبضة الأمريكية تخف عن البترول، وإنما كانت تزداد، ولم يعد منتجو البترول هم فقط الذن وقعوا فى قبضتها، وإنما وقع فى قبضتها بعدهم كبار مستهلكى البترول .

o كان استهلاك البترول يتصاعد بطريقة مريعة فى كل مكان فى العالم : فى الولايات المتحدة الأمريكية زاد استهلاك البترول فى الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٧٢- ثلاث مرات . فقد ارتفع من ٥.٨ مليون برميل فى اليوم إلى ١٦.٤ مليون برميل فى اليوم .

o وفي نفس الفترة زاد استهلاك البترول فى أوروبا الغربية ١٥ مرة . فقد ارتفع من ٩٧٠ الف برميل يوميا إلى ١٤.١ مليون برميل يوميا .

o وفي نفس الفترة في اليابان زاد استهلاك البترول ١٣٧ مرة . فقد ارتفع من ٣٢ ألف برميل يومياً إلى ٤ ملايين برميل يوميا .

وهكذا في بداية السبعينات، فإن البترول، منتجوه ومستهلكوه على حد سواء، كانوا بالكامل تحت السيطرة الأمريكية، فيما عدا بريطانيا التى قنعت فى النهاية بدور الشريك الصغير وراء العملاق الأمريكى الكبير.

------------------ ٥ -------

وسنة ١٩٧٣ كان الرئيس " أنور السادات " يعد لحرب أكتوبر، وبين أهم خطط الحرب – على الجانب السياسى - جرى التفكير فى الدور الذى يمكن أن يؤديه البترول العربي في المعركة .
[كانت قضية استعمال البترول كسلاح فى معركة اكتوبر ضمن المسئوليات التى عهد بها الرئيس " أنورالسادات " إلىّ في الجانب السياسى من الإعداد للمعركة. وقد استأذنته أن أستين فى موضوع البحث بوحدة البترول في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى " الأهرام " (وكنت رئيساً لتحريره ومجلس إدارته فى ذلك الوقت) - وكان رئيس وحدة الطاقة فى المركز فى تلك الأيام هو الدكتور " مصطفى خليل " لذى كان نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للمواصلات ثم للصناعة. ثم ترك الوزارة وقبل مشكورا دعوة منى للانضمام الى أسرة " الاهرام " وقد التقيت مع الدكتور " مصطفى خليل " صباح يوم ٢٨ أغسطس ١٩٧٣ ، وناقشنا احتمالات استعمال البترول في أي معركة مقبلة مناقشة معمقة وتفصيلية. وكان الد كتور " مصطفى خليل " هو الذى أعد تصوراً كاملاً لمواجهة هذه الاحتمالات ، قدمته الى الرئيس " السادات " يوم ٣٠ سبتمبر- وكان التقرير من ست صفحات] .

وكان الرئيس " السادات " يعتقد دواما بقدرته على إقناع الملك " فيصل " بأهمية البترول العربى بدور فى معركة العرب، لكن الملك " فيصل " لم يكن مقتنعا فى البداية بأن للبترول دورا. كان رأيه أن البترول مورد لدخل ، وليس سلاحا لحرب . وفى الشهور الأولى من سنة ١٩٧٣ كان الرئيس "السادات " يواصل محاولته، وكان الملك مازال عند موقفه . وفى مايو من تلك السنة وقعت مفأجأة ، فقد أعلن الرئيس " نيكسون " تخفيض قيمة الدولار بنسبة ١٥%، فى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تضغط في اتجاه زيادة الانتاج فى السعودية (وبالفعل زاد انتاج البترول فى المملكة من يوليو ٧٢ الى يوليو ١٩٧٣، من ٥.٤ مليون برميل يوميا إلى ٨.٤ مليون برميل يوميا)- وكانت الولايات المتحدة تدفع بالدولار طبعا . كان الملك " فيصل " يشعر بالضيق من تخفيض الدولار الذى كان يحتوى كل دخل السعودية، كما يحتوى كل فوائضها . وكان تعليقه فى هذه الفترة أمام رؤساء مجالس ادارة شركات " ارامكو " : ما فائدة أن ننتج أكثر، وأن نبيع أكثر، وأن نقبض أوراقاً يمكن تخفيض قيمتها فجأة بقرار لا يؤخذ رأينا فيه ؟ " وبدأ الملك يصبح أكثر استعدادا لسماع إلحاح الرئيس " السادات " عليه .

وفى مايو ١٩٧٣ اجتمع الملك " فيصل " فى جنيف التى توقف فيها ضمن رحلة رسمية قام بها إلى فرنسا- برؤساء مجالس إدارة شركات " ارامكو "، وبدأ لأول مرة يلمح أمامهم إلى الارتباط ما بين البترول، وما بين أزمة الشرق الأوسط . وقد بدأ حديثه معهم بقوله : " نعم .. نحن أصدقاء الولايات المتحدة، ولكن من المهم أن تثبت لنا الولايات المتحدة بدورها وبسياستها معنا أنها حريصة على علاقتها بنا أيضا " . ثم استطرد الملك يقول : " قبل مجيئى إلى جنيف مررت بالقاهرة، ولقيت الرئيس " السادات " وكان محبطاً جدا من الانحياز الأمريكى لإسرائيل ، والسعودية لا تريد أن تنعزل عن الموقف العربي العام ، ولذلك فأنا أرجوكم أن تساعدونى بما لكم من نفوذ فى البيت الأبيض وفي الكونجرس " .

وبالفعل فإن شركات " ارامكو " بدأت القيام بحملة منظمة عن طريق الصحافة ، وعن طريق الاتصالات المباشرة بالبيت الأبيض . وتضايق " هنرى كيسنجر " الذى كان على وشك أن ينتقل من البيت الأبيض كمستشار للأمن القومى للرئيس ، إلى منصب وزير الخارجية- وقام بدعوة عدد من رؤساء مجالس إدارة شركات البترول الكبرى ، وطلب إليهم تهدئة أعصابهم لأن الطريقة التى يتصرفون بها لا موجب لها من الحقائق السياسية .

ويوم ٢٣ اغسطس ١٩٧٣ كان الرئيس " السادات " فى زيارة للسعودية، وهناك قال للملك " فيصل " : " انه يريد أن يشهده على أنه حاول كل ما فى وسعه مع الولايات المتحدة من اجل حل سلمى ، ولم تجد جهوده صدى ، وأنه الآن لا يجد أمامه مخرجا غير القتال " . ثم تطرق الرئيس " السادات" إلى موضوع الدور الذى يمكن أن يقوم به البترول في المعركة . وكان الملك " فيصل " يبدو لأول مرة مترددا كأنه يزن الأمور فى فكره قبل ان يحدد موقفه . وكان رأيه فى النهاية يرتكز على نقطتين :

o ان أمراً من هذا النوع يجب أن يكون سرا لا يعلم به أحد ، فلو تسرب من هذا الأمر شيء لفسد بسبب ضياع عنصر المفاجأة من ناحية، وبسبب الضغوط التى يمكن أن يتعرض لها قبل الأوان من ناحية أخرى .

o وكان الشرط الثاني للملك أن تكون هناك معركة جدية تستغرق وقتا كافيا، لأن استخدام البترول فى المعركة يحتاج الى أيام قبل أن يوضع موضع التنفيذ . فلو كانت المعركة القادمة مسألة أيام قليلة، فإن الأمور قد تحسم قبل أن تتاح الفرصة لسلاح البترول يؤدى دوره . "

ثم كان السؤال الثانى للملك " فيصل " موجها للرئيس " السادات " :

- " هل لديكم أفكار عن الطريقة التى يمكن بها استخدام البترول كسلاح فى المعركة ؟ "

وكان رد الرئيس " السادات " بأنه " هذه اللحظة لا يملك اقتراحات محددة ، فهو لا يتجاسر على بحث الموضوع حتى يتأكد من قبول الملك للمبدأ . ثم إنه يشارك الملك في أن السرية واجبة . "

ويوم ٦ اكتوبر الساعة الثانية بعد الظهر بدأت المعركة . وفى ساعات قليلة كان الجيش المصري قد تمكن من عبور قناة السويس ، كما أن الجيش السوري كان قد تمكن من اقتحام المواقع الإسرائيلية زاحفا على هضبة الجولان ومهددا باختراق الجبهة كلها نازلا الى سهول الجليل الأعلى . واحتدمت المعارك وانقلبت الموازين فى المنطقة، وبين يوم وليلة أصبح الرأي العام العربى قوة ضغط هائلة تلح على دخول البترول فى المعركة. وبعث الرئيس السادات " يوم ١١ أكتوبر برسالة إلى الملك " فيصل " من بضع كلمات تقول " انجز حر ما وعد " . وبعث الملك " فيصل " فى نفس اليوم برسالة للرئيس الامريكي " نيكسون " يلفت نظره إلى خطورة الموقف وإلى تزايد الضغوط الشعبية فى العالم العربي عليه . وعاد الرئيس " السادات " يتصل بالملك " فيصل " الذى رد عليه برسالة يقول فيها . " إنه فى انتظار رد من الرئيس " نيكسون " ، وبعد وصول هذا الرد سوف يكون مستعدا للتصرف على النحو الملائم . "

وتصادف فى ذلك الوقت أن كان هناك اجتماع مشترك يضم أعضاء " الأوبك " مع رؤساء مجالس إدارات شركات البترول الكبرى فى العالم . وكانت الضغوط المتصاعدة في الشرق الأوسط محسوسة بدرجة مؤثرة فى فيينا حيث انعقد الاجتماع المشترك بين " الأوبك " والشركات .

وبدأ وزراء " الأوبك " ينتهزون الفرصة لطلب زيادة الأسعار، وفى مناخ العصبية والتوتر عرضت الشركات أن تدفع ١٥% أكثر من سعر كل برميل ، متصورة بذلك انها تعوض نسبة تخفيض الدولار . ورفض وزراء " الأوبك " ، وكان تعليق الوزير الإيراني " اموزيجار " ، ساخرا حين نظر إلى ممثلى الشركات على الناحية الأخرى من المائدة وقال " إن ما تقولونه يدعو إلى الضحك ، ولو أنكم قلتم بزيادة ١٠٠% لجاز لنا أن نفكر " !! - وانتهى الاجتماع بالفشل يوم ١٤ أكتوبر ، وأعلن وزراء " الأوبك " أنهم عائدون الى الاجتماع فى الكويت يوم ١٧ أكتوبر لكى يبحثوا عواقب الوضع الخطير فى الشرق الأوسط على عملية البترول كلها . [**فى يوم ١٦ أكتوبر، استدعى الرئيس " السادات " لمقابلته المهندس " سيد مرعى " وسلمه التقرير الذي اعده الدكتور " مصطفى خليل " فى اطار عمله في مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية بـ "الأهرام " وكلفه بأن يحمله للملك " فيصل " فى الرياض لكي تكون اية أفكار فيه تحت تصرفه قبل موعد اجتماع وزراء بترول " الأوبك " .**]

وفى نفس هذا اليوم المحدد - ١٧ أكتوبر- دعا الرئيس " نيكسون " أربعة من وزراء الخارجية العرب يتقدمهم السيد " عمر السقاف " وزير الخارجية السعودى بالنيابة ، وأبلغهم أنه كلف " هنرى كيسنجر" بأن يتولى حل الموقف الناشىء عن الحرب ، وعن أزمة الشرق الأوسط كلها .

وأحس " نيكسون " أن الوزراء العرب فى دهشة من أختياره ، فاستدرك يقول لهم : " قد يخطر على بال البعض منكم أن " هنرى ، يهودي ، وذلك صحيح، و لكن تذكروا أنه أمريكى أولا، وسوف يتصرف فى الأزمة وفق تعليماتى . " – وكان " نيكسون " واهما لأن فضيحة " ووترجيت " كانت تقترب منه فى ذلك الوقت ، وتؤثر على سلطاته بما فيها تعليماته .

و اجتمع وزراء " الاوبك " فى الكويت يوم ١٧ أكتوبر (نفس اليوم) وكان قرارهم بشأن الدور الذي يمكن للبترول العربى أن يؤديه في المعركة هو خفض انتاجه بنسبة ٥% كل شهر على أساس معدلات شهر سبتمبر- ابتداء من ٥ سبتمبر . ثم أن يطبق حظر بترولي على بعض الدول ، وبالتحديد على الولايات المتحدة وهولندا . وكان القرار صدمة. وكانت الصدمة أشد ما تكون وطأة على " هنرى كيسنجر " بالذات الذى كان رأيه أن الاجراء العربي ابتزاز سياسى للولايات المتحدة يصل لدرجة الحرب، وأن النظام العالمى مهدد بالانهيار .

كان الرأى العام الأمريكى يعيش حتى تلك اللحظة مع حلم أو ظن أن السيطرة الامريكية على موارد البترول كاملة، وكانت اليقظة على قرار يفرض حظرا كاملا على تصدير البترول العربي إلى أمريكا . وفى يوم ٢١ أكتوبر اجتمع السيد " زكى اليمانى " وزير البترول السعودى مع " فرانك يونجرز " رئيس مجلس إدارة " ارامكو " ، وخطر لـ " اليماني " أن يسأله " هل انت مندهش من قرار الحظر ؟ " وكان رد " يونجرز " : " انني مذهول " . وكان ذلك الذهول ظاهرة عامة على مستوى العالم ، فقد اختفت من السوق على الفور خمسة ملايين برميل من البترول يوميا. وبدأت دول مثل اليابان تهدد بالخروج من التنظيم الدولى لموارد البترول الذى تسيطر عليه الولايات المتحدة. وقال " تاكيو ميكي " ، نائب رئيس وزراء اليابان وقتها ورئيس الوزراء فيما بعد : " لقد ثبت لدينا الآن أن الحصول على البترول لم يعد مسألة مال ، ولكن مسألة سياسية، ولابد لليابان أن تؤقلم نفسها على الوضع الجديد! . ثم حمل " تاكيو ميكى " حقائبه فى رحلة للشرق الأوسط بادئا بزيارة مصر شارحا سياسة اليابان الودية تجاه القضايا العربية. وفى باريس كان الرئيس " جورج بومبيدو " يقول لـ " هنرى كيسنجر " : " كفوا عن التلاعب بنا . فأنتم تستوردون ١٠% فقط من استهلاككم من مصادر عربية ، وأما فرنسا فإنها تعتمد على البترول العربى بنسبة مائة فى المائة ". وكان " هنرى كيسنجر " فى حالة هياج وغضب وتصميم .

ومع تطورات الموقف فى الشرق الأوسط حتى وقف إطلاق النار يوم ٢٠ أكتوبر ، فإن الرئيس الأمريكى " ريتشارد نيكسون " كان لا يزال عند تكليفه لـ " هنرى كيسنجر" بعلاج الأزمة . وجاء " هنرى كيسنجر " إلى القاهرة، والتقى بالرئيس " السادات " فى ، قصر " الطاهرة " يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣. كان الاجتماع بين الاثنين قد بدأ أولا على مستوى " وفدين من البلدين، مصر والولايات المتحدة، ثم طلب الرئيس " السادات " أن يقتصر الاجتماع عليه و " هنرى كيسنجر " وحدهما. وفى هذا الاجتماع المغلق حدث مشهد من أكثر المشاهد أهمية وخطورة فى التاريخ العربى الحديث. فقد قال الرئيس " السادات " لـ " هنري كسينجر " بعد ان أصبحا وحدهما ما مؤداه " اننى مندهش من المسائل التى بدأت في إثارتها فى الاجتماع الموسع . فأنت شغلت نفسك بمسائل من نوع فك الاشتباك وخطوط وقف اطلاق النار وغير ذلك من التفاصيل، وأنا لا أريد أن أناقش الأمور بهذا المستوى . اننى أعرض اتفاقا تاريخيا بين مصر والولايات المتحدة ، فأنا على استعداد لإجراء تغيير كامل فى السياسة المصرية فى مقابل حل شامل لأزمة الشرق الاوسط . انكم تظنون أنى أحب السوفيت . وقد أرسلت اليكم رسالة عندما قمت بطرد خبرائهم فى العام الماضى معناها أننى أكرههم أكثر منكم ، ولكنكم لم تفهموا الإشارة ، ولم تردوا على ، ووصلت الأمور الى ما وصلت اليه يوم ٦ أكتوبر. " وسأله " كيسنجر " مستوضحا ما يعنى؟ ورد الرئيس " السادات " : " انى أعنى ما قلت لك تماما ، فأنا على استعداد لتغيير توجهات السياسة المصرية ١٨٠ درجة . **[مقابلة مع الرئيس " السادات " فى قصر " الطاهرة " يوم ٩ نوفمبر ١٩٧٣- ولم يستفض الرئيس " السادات " فى حديثه معي عن التغيير الكامل الذى عرضه على " هنرى كيسنجر" وفيما بعد عرفت التفاصيل]** اذا كنت انت لا تريد الروس فى المنطقة، فأنا لا أريدهم أكثر منك ، واذا كنت تريد اخراجهم، فأنا استطيع تحقيق هذا الهدف أحسن منك .. وسوف أخرجهم من المنطقة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم."

وسكت الرئيس " السادات " منتظرا تأثير ما قاله على " هنرى كيسنجر " . كان هو يبتسم، وكان "هنرى كيسنجر" مقطب الملامح يفكر فيما سمع .

ثم كانت مفاجأة الرئيس " السادات " شديدة حينما قال له " هنرى كيسنجر " : " سيادة الرئيس ، إننى لا أستطيع أن أفكر فى سياسة مشتركة بعيدة المدى مهما بدت مغرية لنا بينما سيف حظر بترولى معلق فوق رؤوسنا " . ثم مضى " هنرى كيسنجر " يشرح " مدى الضرر البالغ الذى أحدثه فرض حظر على تصدير البترول العربي الى الولايات المتحدة على هيبة هذا البلد الكبير أولا، وعلى مصالحه الاقتصادية، وعلى دوره القائد في الاقتصاد العالمى " !.

وبدأ " هنرى كيسنجر " يتحرك لإظهار بوادر توحى بأنه بدأ العمل فعلا لايجاد حل لأزمة الشرق الأوسط ، ولكن مراسلاته السرية فى ذلك الوقت كانت توضح أكثر من أي شىء آخر أن موضوع الحظر البترولى العربى هو أكثر ما يشغله .

وفى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٧٣ بعث " هنرى كيسنجر " ، بخطاب سرى للرئيس " السادات " قال فيه بالحرف الواحد : **[ملف عن مراسلات الرئيس " السادات " " مع الرئيس الأمريكى " ريتشارد نيكسون " سنة ١٩٧٣ ،وقد أعده السيد " حافظ اسماعيل " مستشار الأمن القومي للرئيس " السادات " في ذلك الوقت .]**

o عزيزي السيد الرئيس

انني أريد أن أضيف ملحقا صغيرا الى ما سوف يقوله لك الرئيس نيكسون فى خطاب يصلك اليوم ٢٨ ديسمبر . انك تتذكر أننا فى اجتماعنا الأخير ناقشنا كل جوانب الموقف ، بما فى ذلك ضرورة رفع الحظر البترولى على الولايات المتحدة . وحينما تحدثنا فى هذا الشأن فإننى منعت نفسى من أن أسألكم مباشرة ، وبشكل قاطع أن تقوموا بالعمل على رفع الحظر. وقد فضلت أن أبدأ أولاً بمناقشة تفاصيل مسألة فك الاشتباك بين مصر واسرائيل، ولقد فعلت ذلك الآن أثناء زيارتى للقدس ، وسوف أقابل ديان فى الأسبوع القادم لمزيد من المناقشات حول هذا الموضوع . ولهذا فأنا أسمح لنفسى أن أعود الآن لأناقش معك موضوع البترول .

ثم واصل " كيسنجر " خطابه للرئيس " السادات " فقال :

O اننى أريد أن أقول لك بمنتهى الصراحة ان استمرار الحظر على الولايات المتحدة يدعوني للتساؤل عما اذا كان فى استطاعتى أن أقوم بالدور الذى يمكن أن أقوم به فى المسائل التى ناقشناها أنت وأنا باستفاضة. ان الشعب الأمريكى، وهو على حق فى تقديرى ، لن يقبل تأييد سياسة أمريكية جديدة اذا كان يجد نفسه محلا لمعاملة تميز ضده فى موضوع البترول . ان السياسة الأمريكية كما ترون نشيطة، ولكنها لا تستطيع أن تستمر فى نشاط اذا استمر الحظر والقيود على انتاج البترول كما هو الآن ولم يرفع فورا .

ثم خلص " هنرى كيسنجر " فى ختام رسالته :

O اننى أعتقد أنه فى مصلحتنا المشتركة أن نبدأ سويا السير على الخط السياسى الجديد الذى ناقشناه معا فى اجتماعنا. وأنا على استعداد لذلك ، ولكنى لا أستطيع طالما أن الحظر قائم يمس بالمصالح الجوهرية للسياسة الأمريكية وبهيبة الرئيس نيكسون

وفى نفس اليوم وصل خطاب الرئيس " نيكسون " الذى أشار إليه " كيسنجر " فى رسالته، وكانت أهم فقرة فيه موجهة إلى الرئيس " السادات " تقول : " اننى مقتنع بأن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تقوم بدور نشيط فى المفاوضات لإيجاد حل ، ولكنها لكى تفعل فإنه من المحتم أن يوضع حد على الفور للحظر البترولى ضد الولايات المتحدة . اننا على استعداد لأداء دورنا، ولكننا لن نقوم بهذا الدور تحت ضغط من أي نوع . اننى أريد أن أقول لك ياعزيزى الرئيس انه ما لم يرفع الحظر، وما لم ترفع القيود الموضوعة على إنتاج البترول ، فلن يكون فى وسعى عمل شىء " ثم يضيف " نيكسون " فى رسالته قوله : " اننى سوف اكتب اليوم للملك فيصل فى نفس المعنى ، وأنا أعرف أنكما أنت والملك فيصل كنتما على اتصال بشأن موضوع الحظر ، واعتقد أنه من صالح الجميع أن ينتهى هذا الأمر فورا .

(امضاء)
ريتشارد نيكسون

ورد الرئيس " السادات " على رسالة " هنرى كيسنجر" بخطاب حوى ثماني نقاط كانت أهمها النقطتين الثالثة والرابعة . ففى النقطة الثالثة قال الرئيس " السادات " بالحرف :

" بالنسبة لمشكلة الطاقة، فقد شرحت الموقف كاملا للدول المنتجة للبترول ، وبينت أن انتهاج الولايات المتحدة الأمريكية لسياسة أكثر ايجابية بالنسبة للعرب يجب أن تقابله خطوات ايجابية من العرب، وقد قابل هذا الأمر تفهما كاملا من جانب الملك فيصل ، وكذلك بومدين، الا أن بعض الاصدقاء المخلصين من دول الخليج مع موافقتهم من حيث المبدأ الا أنهم طلبوا أن يقترن ذلك باتفاق لفك الارتباط على الجبهة السورية. "

وفى البند الرابع قال الرئيس " السادات " بالحرف فى رسالته : " اننى اشعر أن موضوع الطاقة يسير نحو الحل . وأعتقد أن استكمال محادثاتك فى سوريا وسرعة المحادثات الخاصة بفك الاشتباك على الجبهة السورية سينجز سريعا ما اتفقنا عليه . "

وتلقى الرئيس " السادات " بعد ذلك ردا من الرئيس " نيكسون " جاء فيه :

o أن الوزير كيسنجر شرح لى مدى أهمية أن أستمر فى جهودى للحصول على تأييد الكونجرس ، والشعب الأمريكى للسياسة التى انتهجها، ولكنى أعتقد مخلصاً انه ما لم يرفع حظر البترول ، فإننى لا أستطيع أن أفى بما وعدت به. اننى أقدر تأييدك لما نطلب ، ولقد لفتت وزارة الخارجية نظرى الى تصريحات مهمة أدليتم بها . لكنه طالما بقى الحظر قائما فإننى سأظل مكتوف اليدين .

ثم يستطرد " نيكسون " ليقول فى رسالته :

اننى قلق من التقارير التى تقول ان بعض دول الخليج تريد ابقاء الحظر علينا حتى يتم التوصل الى اتفاقية لفك الاشتباك على الجبهة السورية . ومن جانبي لست ارى مبرراً لهذا الربط ، ولا اظنني أستطيع أن أسير على طريق الحل أكثر بينما هناك حظر على تصدير البترول للولايات المتحدة .

ورد الرئيس " السادات " على الرئيس " نيكسون " في ٢٧ يناير ١٩٧٤ يقول له :

أنني أريدك ان تعرف أني بذلت كل جهد في استطاعتي لرفع هذا التمييز ضد الولايات المتحدة . وقد اتصلت بالملك فيصل، كما اتصلت بالبحرين وأبو ظبى وقطر وكلهم وافقوا، وكذلك وافقت الكويت، وإن كانوا يأملون أن تتمكنوا أثناء حديثكم المنتظر الى الكونجرس من الإشارة الى أن الولايات المتحدة ملتزمة بالتطبيق الكامل لقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهم فى الكويت يريدون ذلك لأن هناك جالية كبيرة من الفلسطينيين تعيش فى الكويت .

ثم يصل الرئيس " السادات " ، فى نهاية خطابه ليقول :

اننى سوف أبعث بمسئول خاص الى الجزائر، ولا أتوقع أن يقفوا فى طريق رفع الحظر، وأتمنى أن تتمكنوا من اعلان رفع الحظر فى خطابكم السنوى المنتظر. وأثق ان وزراء البترول العرب الذين سوف يجتمعون فى طرابلس يوم ١٤ فبراير سوف يعطون التأييد الرسمى لقرار رفع الحظر، وسوف يكون وزير البترول المصرى ، هو المتقدم بمشروع الاقتراح رسميا فى هذا الاجتماع .

واتخذ قرار رفع الحظر عن الولايات المتحدة ، وإن كان الملك " فيصل " اشترط لتغطية موقفه أن يقول له الرئيس " السادات " فى خطاب رسمى أنه تقدم بنفسه بطلب رفع الحظر " لصالح المعركة " كما طلب منه فرض الحظر قبلها " لصالح المعركة ". وتلقى الملك " فيصل " ، بالفعل هذا الخطاب موقعا من الرئيس " السادات " فيما كان الرئيس " الأسد " يبدى احتجاجه وخوفه من أن رفع الحظر سوف ينهي كل احتمالات الضغط العربي على الولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك فإن " هنرى كيسنجر " كان لا يزال غاضبا.

كان همه فى تلك اللحظات قبل أى هم آخر أن يأخذ سلاح البترول من العرب نهائيا، فقد دعا الى اجتماع خاص للدول الصناعية الكبرى فى باريس، وهى الدول التي تعرف الآن بمجموعة الدول السبعة ، لبحث وضع ترتيبات جديدة لقضية الطاقة .

ووقف وزير الخارجية الفرنسى " ميشيل جوبير " يقول :

- " ليس من صالح مؤتمرنا ان يبدو مؤتمراً للمواجهة مع الدول المنتجة للبترول " .

ولم يكن ذلك على هوى " هنري كيسنجر " الذي وقف في اجتماع يوم ١١ فبراير ١٩٧٤ ليقول : " إن سلفي العظيم " دين آتشيسون " (وزير خارجية الرئيس " ترومان ") قال ذات مرة إن الكوارث تأتي من قبول حلول وسط إزاء مشاكل كبيرة ومعقدة . إن الدول المجتمعة فى هذه القاعة تواجه الآن تحديا غير مسبوق لرخائها ولكل بناء التعاون الدولي الذى كافحت لإقامته طوال حقب مضت. لقد واجهنا أثناء الأزمة الأخيرة في الشرق الأوسط أزمة طاقة أثرت على العالم كله، وطرحت أسئلة عن المستقبل لابد من التصدي لها. إن احتمالات التنمية وآمال الرخاء، والاستقرار الضرورى لهذه الاحتمالات والآمال يقتضى سياسة حازمة.

ان الأزمة كانت على ثلاثة مستويات : الحظر- تخفيض الانتاج- التلاعب في الأسعار .

ولابد من معالجة عند الأساس لكل مستوى من هذه المستويات. "

الفصل الثالث
عوالم الوهم

" حسناً يا حبيبتي... أغلقي عينيك وفكري في انجلترا " .

[عبارة من مسرحية تحت هذا الاسم عرضت فى لندن فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات]

------- ١ -------------------

عندما نزل الستار على حرب أكتوبر وبدأت الخطوات الأولى لتفريغ التوتر فى المنطقة بواسطة اتفاقيات فك الاشتباك - كانت القواعد المستقرة فى العالم قد اهتزت بطريقة عميقة ، وكان الذى أحدث هذه الهزة هو أزمة الطاقة التى برزت على حافة المعركة، ثم تحولت بسرعة لتصبح هي كل المعركة . وكان " هنرى كيسنجر " مرة أخرى هو صاحب أدق وصف للتحول الجديد .

ففى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٤ وقف " كيسنجر " فى جامعة شيكاجو يرسم ملامح صورة العالم المتغيرة، فقال: **[مجموعة أوراق لوزارة الخارجية الأمريكية عن أزمة الطاقة نشرت سنة ١٩٨١]**
" قبل ربع قرن من الزمان واجه العالم الغربى أزمة تاريخية، وذلك عندما انهارالنظام القديم نتيجة للحرب العالمية الثانية، وأصبح عالم ما بعد الحرب مهدداً بالضائقة الاقتصادية والقلاقل السياسية، ولكن دول الغرب واجهت الأزمة بأن بنت لنفسها نظاماً للأمن والتعاون يضمن

سلامتها ورخاءها. ومنذ ذلك الحين عاش المجتمع الغربي في نوع من الاستقرار الخلاق . وفى هذه اللحظة- ١٩٧٤- وبعد خس وعشرين سنة ، فإننا نواجه تحديا فى نفس الحجم، وهو يحتاج منا إلى رؤية، وإلى شجاعة، وإلى إرادة . "

ثم أضاف :

" إننى أتكلم بالطبع عن أزمة الطاقة، وهى أزمة شديدة الخطورة، ولا بد أن نجد لها حلا. ان الواقع الذى يواجهنا كئيب . فقبل سنة ١٩٧٣ كان الطلب على البترول يتجاوز المعروض منه، وكانت تلك مشكلة. ولكن المشكلة تحولت إلى أزمة خانقة لأننا فوجئنا ، ومن غير تحذير مسبق ولأول مرة بحظر على البترول يهدف إلى تحقيق أغراض سياسية . ثم تلت تلك زيادة فى أسعار البترول رفعت تكاليف هذه السلعة الاستراتيجية التي لاغنى للعالم عنها بنسبة ٤٠٠% . وكان تأثير ذلك فادحا على كل مجتمعات الغرب وعلى المستوى العالمى . والتحدى الذى يواجهنا هو أن نتصدى لهذا الوضع الطارىء ونعيده الى نطاق السيطرة . ولابد أن ندرك أننا أمام ضرورة الاختيار وحتمية القرار. "

ولم يكن " كيسنجر" فى هذا الحديث يتحدث عن اختيار أو قرار غربى ، وإنما كان يتحدث عن اختيار وقرار أمريكى بالدرجة الأولى .

كان فى مؤتمر باريس فى فبراير ١٩٧٤ قد حاول الحصول على تأييد أوروبا الغربية واليابان، وطرح هناك برنامجا من سبع نقاط لمواجهة أزمة الطاقة ، ولكن حلفاء أمريكا فى الغرب، وبالتحديد أوروبا واليابان ، كان رأيهم مختلفا عن رأيه. فقد أحسوا أن سياسته مؤدية لا محالة إلى مواجهة بين منتجى البترول ومستهلكيه . وكان ذلك رأى الرئيس الفرنسى فى ذلك الوقت " جيسكار ديستان " الذى قال لـ " هنرى كيسنجر " إن " ما تحتاجه الدول المستهلكة للبترول هو نوع من التفاوض والتنسيق مع المنتجين وليست المواجهة " . **[مذكرة رئاسية رقم ١.٢٤٠ – ١٤ – ١٢٤٦ مقدمة من " هنري كيسنجر إلى الرئيس " ريتشارد نيكسون " .]**

وقد صاغ " جيسكار ديستان " فكرته فى اقتراح عملى تقدم به يقضى بتوجيه الدعوة إلى " مؤتمر دولى للتعاون الإقتصادى " يعقد فى باريس ، ويضم منتجى البترول ومستهلكيه . وكان رد " هنرى كيسنجر " على ذلك الاقتراح أنه سابق لأوانه ، وأن مثل هذا المؤتمر يمكن أن يكون لاحقا ، وليس سابقا لعملية تصد ناجح للعمل الذى أقدمت عليه الدول العربية حين " أقحمت البترول "- على حد تعبيره- فى صراعها السياسى مع اسرائيل .

وهكذا افترقت الطرق ولو مؤقتا بين حلفاء الغرب ، وراحت أوروبا تفكر فى حوار عربي - اوروبى يكون من شأنه الوصول إلى لغة للحوار والتفاهم بينها وبين العرب.**[توقف الحوار العربي – الأوروبي فيما بعد حينما اكتشفت أوروبا الغربية أن الموقف العربي الموحد في مسألة الطاقة كان لحظة عابرة في تاريخهم]** . وأما " هنرى كيسنجر "، فقد اختار طريقا آخر أصبح اختيار الولايات المتحدة وقرارها.

كان برنامج النقاط السبع الذى طرحه " كيسنجر" فى باريس يشير إلى رؤوس موضوعات طرحها بالترتيب التالي :

ترشيد استهلاك الطاقة- ايجاد مصادر للطاقة بديلة للبترول - استثمار ٥. ١٢ بليون دولار للبحث والتنقيب على هذه المصادر الجديدة - إيجاد تنظيم للمشاركة فى توزيع الطاقة اثناء

حالات الطوارىء- إنشاء نظام للتعاون المالى فى مواجهة ارتفاع الأسعار- إيجاد وسيلة لتخفيف عبء تكاليف الطاقة على الدول الفقيرة - ايجاد صيغة للعلاقات بين منتجى البترول ومستهلكيه.
كانت هذه هى النقاط السبع التى طرحها " كيسنجر" علنا فى باريس . وبطبيعة العلنية فيها ، فقد كان لا بد لصياغتها أن تكون بريئة وخيرة ، وأما عندما قرر " كيسنجر " بعد مؤتمر باريس أن التعاون مع أوروبا واليابان لا فائدة منه فى الوقت الحالى على الأقل لأن الآخرين " فقدوا أعصابهم أمام العرب " كما كان يقول - فقد وجد مناسبا للولايات المتحدة أن تتصرف وحدها ، وعلى مسئوليتها .

إن مراجعة تطورات الحوادث والتدقيق فى دلالاتها ابتداء من ربيع ١٩٧٣ يظهر ان الولايات المتحدة الأمريكية ، فى مواجهة تحد وصفه " كيسنجر " على أنه مساو لتحدى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية - اختارت وقررت سياسة مختلفة تشتمل هي الأخرى خطى على سبع نقاط يمكن حصرها على النحو التالى : **[يمكن استقراء هذه النقاط السبع من مذكرات " هنري كيسنجر " الصادرة في جزءين : أولهما بعنوان " سنوات البيت الأبيض " والثاني بعنوان " سنوات القلاقل " .]**

١- الإمساك بزمام عملية البحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط ، وترتيب ذلك على سياسة الخطوة خطوة ، بحيث تتوافق الخطى مع استعادة السيطرة على موارد الطاقة.

٢- اعتبار اسرائيل الرادع الأساسى فى الشرق الأوسط ، ورفع درجة العلاقات معها لكى تصبح علاقة استراتيجية، فإسرائيل هى العنصر الذى أدى بالعرب في النهاية إلى قبول حل أمريكى للازمة، واستمرار احساس العرب بتهديدها هو الضمان بهرولتهم دائما إلى أبواب البيت الأبيض .

٣- القبول بارتفاع أسعار البترول ، والعمل على امتصاص الفوائض المتولدة من زيادة الأسعار وتدويرها بواسطة البنوك الأمريكية الكبرى ، وتشجيع الاموال الباقية في يد العرب على أنماط فى الاستهلاك تهدر الثروة ولا تحفظها .

٤- كسر تحالف أكتوبر الذى جمع على غير انتظار بين الجيوش العربية القادرة على القتال ، وبين منابع البترول العربى المعبأة بالذهب الأسود.

٥- استخدام جزء من فوائض الأموال العربية ليكون هو نفسه الاستثمار الذي يوجه لتوفير بدائل للطاقة منافسة للبترول العربى .

٦- العمل على خلق حساسيات بين العرب وبين العالم الثالث وخصوصاً افريقيا ، فقد نجح العرب خلال أزمة اكتوبر فى اقناع معظم الدول الإفريقية بقطع علاقاتها بإسرائيل .

٧- تشجيع الرئيس " السادات " على خطته فى اخراج السوفيت تماما من الشرق الأوسط ، سواء كنفوذ سياسى، أو كمصدر للسلاح .
[وكان من الملاحظ أن المرة الوحيدة التى عمل فيها الخط الساخن بين البيت الأبيض ، والقصر الجمهوري فى القاهرة (قصر عابدين أيامها رسميا) - هى المرة التى جرت سنة ١٩٧٥ حيث اعلن الرئيس " السادات " في مجلس الشعب المصري قراره باسقاط معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي . فقد دقت اجراس هذا الخط الساخن بعد طول سكون تنبه لوصول رسالة من الرئيس " جيرالد فورد " ، يقول فيها للرئيس " السادات " : " إنني أبعث اليك بخالص التهنئة على قرارك الحكيم والشجاع اليوم ، ولم أشأ أن اجعل هذه التهنئة علنية خشية احراجك . وإذا كان رأيك أن مثل هذه التهنئة قد تكون مفيدة لك على وجه من الوجوه ، فإنني على استعداد لإعلان هذه التهنئة فوراً في مؤتمر صحفي في البيت الأبيض " . [مجموعة

أوراق الرئيس " جيرالد فورد " وقد وضع جزء منها في مؤسسة " راند " في كاليفورنيا ، وسمح بالاطلاع عليها لبعض الباحثين في أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها] .]

---------------------- ٢ ---------

وكان العالم العربى غافلا تماما عن متابعة ما يجرى فى خفاء اختيارات الآخرين وقراراتهم ، فقد انشغل بالكامل بالثروة التى هبطت عليه من السماء فى حقبة من الأوهام استغرقته بالكامل من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٠.

كان الثراء من نوع فادح ومفاجىء لم يصل إليه من قبل حلم ولا خيال :

o سنة ١٩٧٠ كان دخل الإمارات العربية المتحدة من البترول ٢٣٠ مليون دولار، وفي سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٩ بليون دولار.
oوسنة ١٩٧٠ كان دخل ليبيا من البترول مليونا و ٣٠٠ ألف دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٢١ بليون دولار.
o وسنة ١٩٧٠ كان د خل قطر من البترول ١٢٠ مليون دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٥ بلايين و ٣٠٠٠٠٠ دولار.
o وسنة ١٩٧٠ كان دخل الجزائر من البترول ٢٧٢ مليون دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٠.٥ بليون دولار .
o وسنة ١٩٧٠ كان دخل الكويت من البترول ٢٢١ مليون دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل الى ٢٢ بليون دولار .
o وسنة ١٩٧٠ كان دخل العراق من البترول بليونا و ٢٣٠ مليون دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٢٥ بليون دولار.
oوسنة ١٩٧٠ كان دخل السعودية من البترول ١.٢ بليون دولار، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٠٢ بليون دولار.

وكان معنى ذلك أن العالم العربى اقترب من سنه ١٩٨٠ وهو يملك دخلا من البترول يزيد على ٢٠٠ بليون دولار . ولم يكن هذا ثراء فادحا بالمقارنة إلى دنيا الأغنياء بين الدول ، فهو أقل من الدخل السنوى لبلد أوروبى متوسط مثل أسبانيا. وإنما كان العنصر الفادح فى الثراء العربى يتمثل فى اعتبارين :

أولهما : اعتبار المفاجأة على غير انتظار.
والثانى : اعتبار أن هذا الثراء كله جاء مالا سائلا يستطيع أصحابه أن ينفقوه على الفور .

وكانت دول الخليج تلف حول نفسها من دوار مفاجآت دهمتها بالحظ على غير انتظار.

لقد حدث الانتقال من الشيخ والقبيلة، إلى المقيم البريطانى والشركة ، إلى برميل البترول ورصيد البنك ، إلى الدولة والثروة- كله فى ظرف حقبة واحدة من الزمن لم تترك لأصحابها فرصة يهضمون فيها ما نزل عليهم سيلا من السماء ، أو تفجر تحتهم عيوناً من الأرض ، ثم يعطون الغنى فرصة ينتقل بها خطوة إلى درجة من التحضر تمنح المال شيئاً من القيمة والاحترام يتعدى مجرد الحسابات والأرقام !

ولم تكن المجتمعات العربية جاهزة للتعامل مع هذا النوع من المال الذى حل فجأة . فبريطانيا تركت امتياز السعودية لأن الملك " عبد العزيز " كان يلح فى طلب مائة ألف جنيه استرلينى، ولو بصفة قرض سنة ١٩٣٧. وشيخ الكويت اعتبر نفسه سعيدا لأنه حصل من الشركات البريطانية والأمريكية على ٣٧ ألف جنيه استرلينى دفعة مقدمة. والشيخ " شخبوط " حاكم أبو ظبى (قبل الشيخ " زايد " مباشرة) لم يعرف كيف يتصرف في أول مليون جنيه استرلينى وصل إلى يده سنة ١٩٦٦، ولقد فضل الشيخ " شخبوط " أن يحتفظ بالمبلغ أوراقا نقدية فى بيته، ثم اكتشف أن الفئران تعطى نفسها حرية القرض فيها . وحاول مدير فرع البنك البريطاني للشرق الأوسط فى أبو ظبى إقناع الحاكم بأن من الأفضل له إيداع أمواله فى البنك ، لكن الشيخ لم يكن مطمئنا إلى كل " اختراع " البنوك ، و بعد جهد جهيد أبدى الشيخ " شخبوط " اقتناعه، فذهب بنفسه، فى الصباح، وأودع ما لديه في البنك، ولكنه حين علم أن البنك سيغلق أبوابه بعد الظهر سارع إلى البنك مرة أخرى و سحب وديعته قبل موعد الإغلاق .

ولقد انتهى أمر الشيخ " شخبوط " بعزله . فقد كان رأى البريطانيين، وهم وقتها أصحاب الكلمة العليا فى الخليج، أن المال يجيء لكى يتحرك، وليس لكى يحبس فى بيوت الحكام أو قصورهم . وبالفعل فقد جاءت أجيال راحت تصرف وتحول الصرف إلى هدف فى حد ذاته عندما فاضت الثروة على غير انتظار وبغير حساب .

إن معظم العرب لم يتنبهوا فى ذلك الوقت إلى ما تدبره لهم الاختيارات والقرارات السياسية للدول الغالبة، وفى نفس الوقت فإنهم لم يتنبهوا إلى ما تدبره نفس الاختيارات و القرارات لثرواتهم المفاجئة . فقد راحت أسواق بيع السلاح تعرض نفسها عليهم ، وكان السلاح مغريا بالأمن ، وأقبلوا على شرائه ناسين أن مخازن السلاح مهما حوت من منجزات التكنولوجيا لا تستطيع توفير الأمن .

وكانت مغاني أوروبا تعرض نفسها عليهم بكل ما فيها من مظاهر الرفاهية والغواية ، واغرقوا أنفسهم فى سهرة طويلة تأخر فيها طلوع الفجر سنوات بأكملها .

وحتى عندما التفت بعضهم للثقافة والفن ، فإن التفاتتهم كانت بهدف الاقتناء والاستثمار ، على عكس ما حدث فى عصر النهضة فى أوروبا حين فاضت أرباح التجارة على المدن التجارية مثل فلورنسا، وفنيسيا، وجنوا. هناك، كما حدث مثلا فى عصر أسرة " المديتشي " ، كان المال يستخدم لشراء الجمال . وأما فى عصر البترول العربى، فإن الجمال كان يشترى لقيمته كـ " مال " ، أى أنه الاقتناء بقصد الاستثمار بالدرجة الأولى!

كانت رعاية ثروة " المديتشى " للجمال هى التى أعطت الفرصة لعباقرة من أمثال " دوناتللو " و " بوتيشيلو " و " مايكل أنجلو " وغيرهم .

وأما فى عصر النفط ، فإن جمال الفن كان فى حساب كثيرين وعاء حافظاً للاستثمار .

وهكذا أقبل كثيرون من العرب على شراء مئات اللوحات الفنية لمشاهير فنانى الغرب ، واشتروا آلافا من قطع السجاد والنسيج الأصلية، و أعداداً لا تحصى من مشغولات الذهب والفضة والخزف والصينى باعتبار قيمتها المالية ومضاربين على ارتفاع أسعارها باستمرار .

وبالطبع كانت هناك استثناءات، ولكن الإجمالى العام لم يكن حضاريا. ولعل الملك " فيصل " كان واحدا من النين تابعوا نمط الاستهلاك العربى الجديد مبكرا وأزعجه ما رأى ، وعلق عليه بقوله :

" ان أجدادنا كانوا يركبون الجمال ، وآباءنا كانوا يركبون السيارات، ونحن تعلمنا ركوب الطائرات . ولكنه اذا مضى الحال على ما هو عليه فإنى أخشى أن أحفادنا سوف يعودون الى ركوب الجمال مرة ثانية " ! [خلال مقابلة للملك " فيصل" مع محمد حسنين هيكل في شهر مايو ١٩٧١ في فندق " فلسطين " بالاسكندرية .]

ولم يكن أصحاب البترول وحدهم الذين يصرفون ، وإنما أصبحت بلادهم – فجأة أيضاً – ملجأ لكل الباحثين عن فرصة أو الباحثين عن ثروة . وتوجهت جيوش من هؤلاء ، كباراً وصغاراً ، إلى مواقع البترول ، وتراكمت ثروات، وعرف الاقتصاد العربى لأول مرة ظاهرة تحويلات العاملين فى الخارج إلى أوطانهم ، ووصلت بالنسبة لبعض البلدان بحيث أصبحت من أهم مواردها. وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة لمصر مثلا كانت تحويلات المصريين العاملين فى العالم العربى تزيد كثيرا على دخل قناة السويس والبترول والسياحة مجتمعة . ويقدر بعض الخبراء أن حجم هذه التحويلات وصل إلى ما بين ٨ و ١٠ بلايين دولار سنة ١٩٨٠. **[دراسة مشتركة للدكتور " مصطفى خليل " رئيس الوزراء السابق ، والدكتور " حسن عباس زكي " نائب رئيس الوزراء للاقتصاد في مصر]**

ولم تكن هذه التحويلات خيرا كلها، فلك أن بعض الباحثين عن فرصة في بلدان البترول تركوا عائلاتهم دون راع يدير شئونها مما عرض أجيالها الجديدة لنوع من مخاطر الانفلات فى بعض الأحيان . كما أن العائدين بعد أن تحققت لهم الفرصة حملوا معهم الى أوطانهم ألوانا من الاستهلاك وطرق المعيشة أثرت كثيرا على مجمل القيم السائدة قبل عصر البترول وأمواله.

والنتيجة أن البترول والقيم الوافدة أحدثا نوعا من اختلال القيم والتماسك الاجتماعي فى المواقع المؤثرة فى حركة العالم العربى تقليديا مثل القاهرة ودمشق وبيروت وغيرها .

ولم يكن الصرف وحده هو الذى يستنزف الأموال ، وإنما زاد عليه الرهن أيضاً . وهذه أول مرة فى التاريخ يحدث فيها أن يرهن صاحب المال (السائل) ماله. ولكن " ويليام سيمون " وزير الخزانة الأمريكى (مع الرئيسين " نيكسون " و " فورد ") استطاع إقناع المملكة العربية السعودية بأن تشترى أذونات خزانة أمريكية لا تتداول فى الأسواق مثل غيرها من السندات، ولكن تكون مربوطة بآجال تمتد إلى عشرين وخمس و عشرين سنة ، بحيث إذا احتاجت المملكة من أموالها شيئا كان عليها أن تتفاوض مع الخزانة الأمريكية لتفك القيود إذا رضيت . ولقد كان التصور الذي طرحه " ويليام سيمون " ليجعل فكرته مقبولة هو أن منتجى البترول الذين يتقاضون عوائدهم بالدولار لهم مصلحة فى الحفاظ على قيمته، وبما أن فوائضهم كبيرة فإنها إذا تركت حرة فى السوق تحولت إلى صخرة متحركة على سفح جبل يمكن أن تهوى على رؤوس الجميع بما فيهم أصحابها . وفى وقت من الأوقات سنة ١٩٨١ وصلت قيمة الأموال العربية المرهونة بهذه الطريقة إلى ما يزيد على مائة بليون دولار.

ومع زيادة الأموال ، سواء كانت طليقة أو مقيدة ، فإن الأثرياء الجدد غرقوا فى الأوهام ، والمال عادة هو المطر الذى يملأ بحار الوهم بما فيها .

ولقد زاد " وهم النفوذ " حينما بدأ الأثرياء الجدد يكتشفون أن الملوك والرؤساء فى أوروبا واقفون في انتظارهم ، وأن رؤساء الوزارات يظهرون السعادة باستقبالهم، وأن الوزراء و رؤساء مجالس إدارات الشركات الدولية العملاقة ينحنون لهم تحية وإجلالا ، ويتسابقون إلى كسب ودهم ورضاهم، وتحقيق رغباتهم قبل أن تنطق بها شفاههم ، كان أدق ما يصور هذه الفترة مسرحية ظهرت في لندن في أواخر السبعينات ، واستمر عرضها بلا انقطاع قرابة عشر سنوات ، وكان اسمها " اغلقي عينيك وفكري في انجلترا " .

كانت المسرحية من ثلاثة فصول تدور كلها فى صالون بيت رئيس مجلس ادارة إحدى شركات البترول الكبرى . ويبدأ الفصل الأول من المسرحية والبيت فى انتظار شيخ من شيوخ البترول قادم إلى العشاء. ويظهر اللورد المضيف فى المشهد الأول من المسرحية يتفقد الصالون مع زوجته، ويتأكد من أن كل قطع الأثاث الجميل فى مكانها، وكذلك اللوحات ثم الزهور، ثم يراجع قائمة الشراب والطعام ، ويعطى بنفسه آخر تعليماته لرئيس الخدم ، ويضيف إلى ذلك معلومات من تقرير اطلع عليه عن مزاج الشيخ وعاداته . ثم يتذكر رئيس مجلس الإدارة شيئا ويبدو تردده وهو يصارح زوجته به. ثم يغالب تردده ويقول لزوجته " إن الشيخ عاشق طول الوقت ، وفى الحفل الذى يوشك أن يبدأ جمال كثير، وربما يكون مناسبا أن تكون الليدى المضيفة يقظى لنظرات الشيخ ، و لا بأس إذأ أعجبته واحدة من الضيوف ان تتولى تقديمها له و " ان تترك له الفرصة ". "

وينتهى الفصل الأول بدخول الشيخ إلى الحفل . ثم يبدأ الفصل الثانى، ويدور كله حول تصرفات الشيخ فى الصالون البريطانى العريق ، فهو يقفز من هنا إلى هناك ، ويربت هنا على خد، ويمسح هناك على شعر، ويترك لنظراته وأصابعه حرية زائده عن الحد، والكؤوس تدور والضحكات ترن والعطر فواح .

ويبدأ الفصل الثالث والحفل ما زال مستمرا لا يهدأ صخبه وكذلك الشيخ . ثم تظهر " الليدى " مضيفة الحفل ، وهى تحاول أن تلفت نظر زوجها إلى أنها تريد أن تتحدث اليه ، وهو مشغول عنها بالتأكد من أن إيقاع الحفل لم يفقد حيويته رغم طول السهر . وأخيرا تفلح الزوجة فى اللحاق بزوجها فى ركن من الصالون لتقول له بحيرة :

- " جون ... هناك مشكلة " !

ويرد عليها بسرعة :

- " لا أريد مشاكل هذه الليلة " .

وتقاطعه:

- " انتظر حتى تسمعني " .

ويقول بنفاذ صبر :

-" انني اسمعك " !

وتقول له وحيرتها تزداد :

-" هل تعرف من أعجبته ؟ من يريد ؟ يريدني أنا " !

ويكون رده التلقائي :

-" ماذا ؟ أنت ؟ هل فقد صوابه ؟ "

ثم يسكت ، وتنتقل الى ملامحه تعبيرات الحيرة . ثم يقول وكلماته تتعثر على شفتيه :

-" حسناً يا حبيبتي . اغلقي عينيك وفكري في انجلترا " .

وينزل الستار !

وليس هناك شك في أن هذه المسرحية وغيرها كانت نوعاً شائعاً من القوالب المصبوبة المصنوعة لتصوير الثري العربي على نحو قبيح ، وبنوع من التعميم لا تمييز فيه ولا تدقيق .

ومع ذلك فليس هناك شك في نفس الوقت أن مشاهد المسرحية كانت تمثل ، ولو حتى عن طريق " الكاريكاتير " مناخ سنوات معينة بين منتصف السبعينات ، ومنتصف الثمانينات .

ولقد زاد على وهم النفوذ وهم الابهة ، وكانت الحقيقة الاصلية قد وجدت لنفسها عشرات الاقنعة : كانت البداية شركة بترول ، وتحالفت شركة البترول مع قبيلة ، واصبحت القبيلة دولة ، ثم اكتسبت مواقع امتيازات البترول حصانة الحدود الدولية . ومهما يكن فإن حقائق القوة في النصف الثاني من القرن العشرين تكفلت بان تحول " وهم الدولة " الى " واقع الدولة " . فهذه الخطوط التي رسمتها اقلام ضباط حكومة الهند في القرن التاسع عشر على خرائط الخليج وصحاريها الشاسعة من الربع الخالي الى حفر الباطن ، أصبحت أمراً واقعاً له كيانه وله دوره ، وحتى إذا لم يكن قادراً على تحقيق أول مطالب الدولة وهو حماية نفسها بنفسها بالمنعة في موقعها او بالسياسة مع جيرانها – فإن هذا الأمر الواقع كان يمثل ترتيباً عالمياً لا يستطيع طرف محلي أن يقترب منه إلا إذا كان على استعداد للصدام مع مصالح هائلة وغالبة . وفي كل الاحوال فإن هذه الكيانات أصبحت اعضاء في الجامعة العربية وفي الامم المتحدة ، واصبحت سيادة كل منها محل اعتراف يستحيل تحديه ، ونتجت عن ذلك شرعية لا مجال للشك في وجودها .

والحاصل أن الكويت على وجه التحديد أعطت نفسها في تلك الفترة ما هو اكثر من شرعية الأمر الواقع ، فبحكم نشأتها كمدينة تجارية ظهرت فيها طبقة متوسطة عريضة ومستنيرة . ولم يكن وضع أسرة " الصباح " في البداية وضع حكم قبلي أخذ ما اخذ بحد السيف ، وإنما كان أقرب إلى الرئاسة المختارة برضا الناس لرعاية مصالحهم المشتركة، ثم ساعد على تأكيد هذا الحال أن الكويت أعطت نفسها جامعة كبيرة ، ومجلسا نيابيا نشيطا، وصحافة متنوعة الاتجاهات . واتسق هذا كله مع مؤسسة تقليدية عاشت دواما فى الكويت ، وهي " الديوانيات " التي يلتقى فيها الجميع كل ليلة ويتناقشون فيما يعن لهم من أمور بلا خوف من سيف أو سوط ! وربما كانت مشكلة الكويت فى مرحلة لاحقة أن ما حولها طغى عليها ، وجار فى بعض الأوقات على خصوصيتها .

كانت الكويت مدينة تجارية قابلة للازدهار مثلما ازدهرت المدن التجارية فى ايطاليا اثناء عصر النهضة ، كفلورنسا مثلا . ومن سوء الحظ أن الكويت لم تجد مثيلاً لـ " لورنسو العظيم " يحمي دورها ويعززه .

-------- ٣ -----------------------

والحقيقة أن الأوهام زادت فى منطقة الخليج وأدى ذلك إلى حساسيات لا مجال لإنكارها بين القبائل العربية و المدن العربية . فقد راحت أطراف العالم العربى تعيش في غنى لم يسبق له مثيل ، بينما المراكز الحضارية الكبرى في نفس هذا العالم العربي تئن تحت وطأة الحاجة . ولم يكن مثل هذا الأمر قابلاً للاستمرار دون مشاكل بين شعوب تنتمي الى أمة واحدة .

وبالقطع فإنه لابد من القول بأن الغنى ليس ذنباً اقترفه أصحابه لمجرد أنهم ولدوا ونشأوا في بقعة معينة من الأرض تفجرت بحوراً من البترول ، ولكنه في المقابل كان لابد لضرورات التاريخ أن تتوازن مع احكام الجغرافيا خصوصاً في اطار الحقيقة التاريخية لأمة واحدة .

ولم يكن هناك مجال لحديث عن اقتسام الثروة ، فمثل هذه المقولة تؤدي الى محظور تحويل الكل الى فقراء إذا جاز أن توزع عوائد البترول بنسبة السكان – لكن نوعاً من شركة التنمية كان ضرورياً للكل حتى بمنطق حفظ الثروة من أن تتآكل بالبذخ او بالتضخم ، أو بتخفيض عملات الغرب مرة بعد مرة ، وكل مرة منها تخصم من الارصدة العربية ربع قيمتها ، وثلثها في بعض المرات .

ولم يكن كافيا أن تدفع دول البترول بعض الدعم لدول المواجهة مع إسرائيل ، ولم يكن كافيا أيضا أن تدفع " دول اليسر " كما أسماها البعض- شيئا من المعونه في السر لـ " دول العسر " كما أسماها البعض أيضا- لتخفيف ضائقة خانقة، أو سد عجز فغر فاه .

كان الأمر يحتاج إلى خيال أوسع ، فقد كان من الصعب أن يكون متوسط الدخل في الإمارات العربية المتحدة ٢١٠٠٠ دولار للفرد فى السنة ، بينما متوسطه فى مصر ٥٠٠ دولار للفرد فى السنة!- وكانت مصر أحسن حالا من بلاد عربية أخرى كثيرة .

ولقد كان مثيراً للأسى أن " حلم التنمية المشتركة " لم يتحقق في حين زاد على الصورة وهم آخر هو " وهم الأمن المنفرد " .

كانت قصة " وهم الأمن " قصة أخرى حافلة بالمفارقات.

إن مجمل الدخل الذى حصلت عليه دول البترول - عبر ثلاث حقب – سواء من بترولها، أو من أرباح فوائضه - يتراوح ما بين ٢.٥ إلى ٣ تريليون دولار . وقد صرف منه قرابة النصف على مقتضيات الأمن من أسلحة القتال البرى والجوى والبحرى ، ونظم الدفاع الجوى المتطورة، والصواريخ والانشاءات اللازمة . ومعنى ذلك أن تريليون دولار وأكثر أنفقت كلها على الإعداد العسكرى لمعركة لن تجيء ، و ذلك لأن ترتيبات المصالح الدولية ترسم خطوطها الحمراء أمام كافة الأطراف ، وإذا غامر طرف باجتياز هذه الخطوط الحمراء فإن العدو الذى سيلقاه عندئذ لن يكون كيان الشركة- القبيلة- الدولة- وإنما العدو سوف يكون هو القوة الحقيقية وراء هذا كله . وفى وفي كل الأحوال فإن هذه الدول الصغيرة لا تستطيع مواجهة قتال ، والشاهد أن الوضع الجغرافى لدول الخليج يضعها وسط حصار من القوى المحلية والإقليمية ، وعلى خطوط التماس بين تيارات مذهبية وفكرية.

فالخريطة الجغرافية تظهر أن دول الخليج الصغيرة محاطة بثلاث د ول مجاورة ليست أقوى منها فحسب ، وإنما هى إلى جانب قوتها لها مطالبها القديمة أو الجديدة ، و هي مطالب هاجعة كسيف فى غمده يمكن إشهاره فى لحظة :

- هناك المملكة العربية السعودية، وهناك إيران، وهناك العراق . وللثلاثة مطالب فى دول الخليج: حقوق تاريخية- حدود- عصبيات - نفوذ - أمن.. الى آخره .
- وهناك مصر وسوريا، ونفوذهما السياسى واصل ، ودورهما في التوازنات مطلوب .

- وهناك عند الجنوب الشرقي وعند الشمال الغربى ، العسكرية الباكستانية والعسكرية التركية ، وكلاهما موجود وراء الإطار الإقليمى المباشر، ويمكن أن يكون له ما يحلم به خصوصاً باكستان مع وجود تأثير هندى قوى فى الخليج **[لا يزال طعام الخليج متأثراً بالمذاق الهندي ، وإلى عهد قريب كانت العملة المتداولة في المنطقة هي الروبية الهندية ، وكذلك طوابع البريد]** ، ومع وجود جاليات آسيوية كبيرة.
- وهناك في الاعماق خلافات أسر، وتصادم شيع، وثأرات قبائل، ومنافسات تمتد من قصور الأمراء إلى إسطبلات الخيل!
- وهناك وراء الأفق أساطيل لقوى عظمى وقواعد وإمدادات جرارة.

والسلاح مكدس في المخازن، وصناديقه مرصوصة فوق بعضها ، وفيها ما تنتهى صلاحيته دون أن تفتح صناديقه ، وهو ما زال يؤدى دوره المطلوب منه ، فهو شريك فى صنع الوهم ، ثم إنه في كل الأحوال مفيد . وإذا لم يساهم فى تمكين نظريات الأمن من تحقيق مطالبها ، فهو يساعد فى تنشيط سوق السلاح، وفى تشحيم عجلاتها لكى تواصل دوراتها في ليونة ويسر .

ولعل الجزء الذي استطاع أداء دوره فى الأمن هو ما كان موجها من أدواته إلى الداخل ، فقد استوعب العرب - القبائل والمدن على حد سواء - أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا العصر في مجال الأمن الداخلى .

وفي نفس الوقت ، فإن دواعى القلق على الأمن كانت كامنة لا تعالجها تكنولوجيا القمع ، ولا تستطيع الوصول إليها. وعلى سبيل المثال فإن الأسرة الحاكمة فى السعودية كانت في ذلك الوقت ، ولا تزال معرضة لمشاكل بسبب قواعد ولاية العرش .

كانت القاعدة التي وضعها الملك " عبد العزيز " هى أن ينتقل " الملك الى الأرشد من ابنائه " . وكان مفهوم هذه القاعدة أن يكون انتقال الملك إلى أبناء الملك ليس باعتبار السن وحده ، ولكن أيضاً بمراعاة أن يكون الأرشد المؤهل للعرش مولوداً لأم من قبيلة من قبائل المملكة الكبيرة .

وبمقتضى هذه القاعدة ، فقد كان الملك " سعود " هو الذى خلف الملك " عبد العزيز " ولكن الاسرة خلعته بعد سنوات ، وأسقطت فترة حكمه كاملة حتى في صور الملوك المتعاقبين على العرش ، كما فعل الشيوعيون فى الاتحاد السوفيتى بالنسبة لزعمائهم الذين سقطوا فى الصراعات الداخلية للحزب، فانمحى كل أثر لهم حتى في الصور والقواميس ودوائر المعارف!

وبعد " سعود " جاء الدور على الملك " فيصل " . ومن بعده على الملك " خالد " الذى كانت والدته من قبائل " شمر " . وبعد الملك " خالد " جاء الملك " فهد " وإخوته الأشقاء ووالدتهم جميعا من قبيلة " السديرى " ، وولي العهد الآن هو الأمير " عبد الله " ووالدته من قبائل " شمر " . وبعده فى الغالب فإن الدور يحل على الأمير " سلطان " ثم الأمير " سلمان " ، وهما كأشقاء للملك "فهد" من والدة سديرية...

لكن المشكلة تنتظرعند نقطة فى مستقبل غيربعيد.

فأصغر أبناء الملك " عبد العزيز " الآن فات الستين من عمره ، وإذن فلا بد من قاعدة جديدة لولاية العرش تحل محل قاعدة الأرشد من أبناء " عبد العزيز" . وهذا هو الصراع القائم لأن ملكا من ملوك السعودية فى سنوات قليلة يتحتم عليه- مثلما وقع للخديوي " اسماعيل " فى

مصر- أن يضع قاعدة لولاية العرش يكون من نتيجتها حصر هذه الولاية فى فرعه هو من الأسرة، وتلك طبيعة الأشياء.

والمشكلة أن السلطة والثروة تفوقان الخيال في السعودية، وانتقال الملك من فرع إلى آخر فى أسرة يبلغ تعداد أفرادها أكثر من سبعة الاف من الذكور- كفيل بأن يحدث هزات كبرى . وربما لا يغيب عن الذكرة أن " أميرا " من فرع " سعود " كان هو الذي أقدم على قتل الملك " فيصل " سنة ١٩٧٥ نتيجة لضيق أحس به بعد تحول السلطة والثروة من فرع إلى فرع داخل الأسرة . وتظهر بعض الوثائق أن عددا من أميرات الفرع الحاكم فى السعودية ، على سبيل المثال، كن يحصلن على أذونات بحصص من البترول يقمن فى ظرف ساعات معدودات بالتنازل عنها لحساب مصدرين عربا ، أو أجانب فى مقابل نصيب معلوم . وقد تسربت بالفعل إحدى هذه الوثائق ، وهى محضر وكالة من الأميرة " موضى عبد العزيز آل سعود " - لصالح وكيل لبنانى تفوضه فيها فى بيع حصتين من البترول تقررتا " لأمر الأميرة شخصيا " بحجم مليون برميل من نوع (API -٣٦) " لبيعها فى السوق العالمية الحرة حسب الأصول المتعارف عليها ".[**تسجيل تفويض أمام قاضي العدل في الرياض برقم ١١٦٢٨ – ٩٤٧ / ٢٠ ، بتاريخ ٨/٤/ ١٤٠٠ هجرية ، الموافق ١٩٨٠/٢/٢٥ ميلادية – قام بتسجيله أحمد الحسين الحميدان كاتب العدل – الرياض**] .

وليس بعيداً عن طبائع البشر أن تتسبب هذه الاوضاع القلقة فى صراع تختلط فيه الحقائق بالاوهام . ثم إنه ليس بعيدا عن طبائع البشر أن يتسبب هذا الوضع القلق أيضا فى خلق فرق ومعسكرات وكتل تتصارع فى الخفاء، وقد يفلت صراعها فى أى لحظة وينفجر !

ولقد أظهرت أزمة الخليج اختلافات فى الرؤى والاجتهادات بين فروع الأسرة ، وبين اجيال مختلفة الاعمار من أبنائها، وقد أدت هذه الاختلافات حتى وسط ضغوط الحرب الى تقلصات حادة و مكتومة حتى إشعار آخر.

نتيجة لهذه الاحوال كلها نشأت فى المنطقة نخبة سلطة لا ينبغى لأحد أن يمل من الحديث عنها والاشارة لها : مجموعات من الأجانب والعرب تربطهم أوثق الصلات بدوائر البترول ، والمخابرات ، وتجارة السلاح . وكانت هذه الدوائر الثلاث قريبة بالطبع من دائرة صنع القرار . وهكذا حدث اختلاط خطر فى الأمور وفى العلاقات وفى التصرفات ، واقترب تأثير هذا الخطر على مجال التوجهات السياسية والقرارات ، ونشأت شبكة ثانية من علاقات السلطة في الظل . كانت السلطة فى العالم العربى قد انتقلت بحكم ظروف كثيرة إلى القمة ، ولكن القمم لم تكن مع بعضها طوال الوقت، وهكذا نشأ تحتها خط مواز من الاتصالات تداخلت فيها الألوان والظلال وبقع الظلام الداكنة كلها مع بعضها ، وشهد العالم العربي كله نوعاً من الاختراق أخطر مما عرف من قبل . كان العالم العربى فى تاريخه الحديث يعاني من ظاهرة الاختراق الخارجى ، لكن المدى الذى وصلت إليه هذه الظاهرة في تلك الحقبة البترولية لم يكن له مثيل .

وكان للاختراق جانب آخر. فإذا كان الاختراق يسمح للخارج بأن ينفذ إلى الداخل، فإن مواضع النفاذ نفسها تصبح ثغرات ينضح منها ويخر ما يحتويه الوعاء المخروق . ولم يكن في الوعاء ، بما آلت إليه الأمور، إلا مال كثير وأوهام قوة أكثر .

وهكذا في ذلك العصر من الأوهام تصور بعض العرب أنهم يشاركون فى رسم خرائط العالم ، فإذا اموالهم تساعد فى معارك دولية تخص غيرهم ولا تخصهم ، مثل معارك انجولا، والقرن الافريقي وجنوب شرق آسيا، وحتى فى أمريكا اللاتينية.

كانت الولايات المتحدة بعد تجربة فيتنام لا تريد حروبا خارجية، ثم إن الكونجرس لم يعد على استعداد لأن يصرح لها بعد تلك التجربة المريرة باعتمادات تمارس بها مثل هذه الحروب الخارجية.

وكانت الاوهام العربية جاهزة ، وكان المال العربى مستعدا.

وتورط بعض العرب فى مغامرات طائشة ظهر القليل منها في تفاصيل فضيحة " ايران- كونترا " حين لعب بعض العرب وبمال عربي أدوارا غريبة في شراء سلاح للمتمردين فى " نيكاراجوا ". اشتروه من اسرائيل ، وباعوه لوكالة المخابرات المركزية لتعطيه لمتمردى الكونترا، ثم يشترون بالمال سلاحاً لإيران – اثناء حربها مع العراق !
(وعلى سبيل المثال فقد تبرعت السعودية فى دفعة واحدة بمبلغ ٣٥ مليون دولار للمساعدة على اسقاط نظام " الساندينستا " في نيكاراجوا) . **[مذكرات الكولونيل " أوليفر نورث " – من مساعدي الأمن القومي في البيت الأبيض – وتحقيقات الكونجرس في تفاصيل فضيحة " إيران – كونترا " .]**

ولقد ظهرت وسط نخبة القوة العربية الجديدة نجوم بعضها شارد بلا مسار ، وبعضها مضىء ، وبعضها معتم .

ان النجوم فى نخبة القوة العربية مجموعة من الرجال والنساء يصعب أن يوجد لها نظير فى أفلاك دولية أخرى ، وبمقدار ما أن السلطة فى العالم العربى ذات طابع خاص . فان نخبة القوة المحيطة بها لها هى الأخرى طابعها الخاص . ويمكن ان يقال بصفة عامة إن نخبة القوة العربية تحمل خصائص تميزها عن غيرها من نخب القوة في مجتمعات أخرى :

- كلها بالطبع قريبة من القمة- دون أن تكون لها فى معظم الأحيان مسئوليات رسمية تضع أصحابها فى دائرة اختصاص عام يقاس به أداؤها ، وبالتالي فإن نفوذها موجود ، وفى الغالب غير ظاهر، ومحسوس وفى الغالب غير مقنن ، وحجم النفوذ مرن ومتفاوت بين رجل وآخر، وبين فترة وأخرى بالنسبة لنفس الرجل .

- ومعظم مجموعة نخبة القوة فى أى بلد عربى على اتصال بمثيلاتها في بقية العالم العربى، وبحكم فردية السلطة، وشخصيتها فى بعض الأحيان ، فإن علاقات قمم السلطة فيه تجرى وتتم بغير طريق أجهزة الدولة الرسمية، وبالتالى فإن خطوط الاتصال تتم عن طريق رسل ووسطاء مباشرين يظهرون وسط العواصم على الطرق الى القصور ، ثم يختفون بنفس السرعة التى يظهرون بها.

- وفى الغالب الأعم فان مجموعات نخبة القوة العربية قريبة من أهم المواقع التي تكمن فيها مواضع صنع الثروة العربية : وأولاها البترول ، والثانية تجارة السلاح ، والثالثة بضرورات الاشياء دوائر المعلومات بما فيها دائرة المخابرات ودائرة الاعلام . وهكذا فإن حجم التداخل

بين العلاقات السياسية والمالية والاجتماعية والانسانية نافذ إلى أعماق يصعب قياسها ، أو رسم جدول بياني لشبكاتها ومساحاتها .

O وبسبب هذا التشابك بين القوة ، وعناصر الثروة ، ودوائر المعلومات – فإن الاسلاك بين ما هو محلى ، وبين ما هو إقليمى، وبين ما هو دولى- تتشابك وتتعقد وتخلق احياناً أوضاعاً يصعب التحكم فيها وضبط حركتها، أو حتى متابعتها .

وفي وقت من الأوقات فى الولايات المتحدة الأمريكية وقف رجل مثل الرئيس الأسبق " دوايت ايزنهاور " - يقول فى خطبة الوداع التى غادر بعدها البيت الأبيض فى نهاية مدة رئاسته " إنه يريد أن يحذر من مجموعة قوة فى الولايات المتحدة تتداخل فيها مصالح الصناعات الكبرى مع مصالح المؤسسة العسكرية الأمريكية "- وهو ما أسماه " ايزنهاور " وقتها " المجمع العسكرى- الصناعى " .

وربما يحتاج العالم العربى إلى صوت ينبهه إلى تزايد دور " مجمع القوة العربى " الذي ظهر فى السبعينات ، ونما فى الثمانينات، ويوشك نفوذه أن يستشرى فى التسعينات .
و ربما أمكن القول بشكل عام إن أحد النماذج الظاهرة لهذه النجوم فى الآفاق العربية هو رجل مثل السيد " عدنان خاشقجى " .

فهو . على نحو أو آخر قريب - أو كان قريبا- من دوائر صنع القرار فى السعودية.

وهو حامل رسائل ووسيط نشيط على الطريق بين عواصم عربية متعددة- أو على الأقل كان كذلك إلى عهد قريب .

وهو على صلة وثيقة بعمليات البترول ، وتجارة السلاح ، وينابيع الثروة المتدفقة منهما .

وهو قريب إلى درجة شديدة من دوائر المعلومات ودوائر المخابرات فى العالم العربي ، وخارجه، إلى درجة جعلته فى القلب تماما من قضايا خطيرة أشهرها قضية " إيران – كونترا " ، وكان فيها على صلات عربية ، وأمريكية، وإسرائيلية، وايرانية، وبريطانية، وحتى فلبينية . وكانت الصلات مالية، وتجارية، وسياسية، وإعلامية، واجتماعية - ظاهرة وخفية ، وكله فى نفس الوقت!

و"عدنان خاشقجى " نموذج واحد وبارز لأن الظروف ركزت عليه أضواء أبانت ، وكشفت إلى درجة يمكن معها الرصد والمتابعة.

لكن هناك غيره آخرون لم تمسك بهم كشافات تركز عليهم بقع الضوء ، وواصلوا حركتهم فى غطاء تراكمات من الغمام والظل .

على أن عددا من المظاهر- فى الغالب وليس بالضرورة دائما- يحيط بهؤلاء :

فهناك يخت فى عرض البحر، وهناك قصور على الشواطىء فى الصيف وعلى الجبال فى الشتاء، وهناك حاشية لامعة ومضيئة بجمال الوجوه وأناقة الأزياء وسحر الجواهر والعطور، وهناك طائرة خاصة، وهناك شركة حراسة أمريكية فى الغالب تمسك بشئون الأمن ، وتشرف عليها بضباط وجنود كانوا سابقا فى القوات الخاصة للبحرية الأمريكية ، وهؤلاء الحراس دائما

هناك عند حواجز وأسوار شائكة ومكهربة وأبواب تقفل وتفتح بأزرار كهربائية ، وفى أحزمتهم تتعلق أجهزة الاتصال اللاسلكى، وأيديهم لا تفارقها المدافع الرشاشة من طراز " أوزى " الإسرائيلى الشهير، ثم هناك أبراج الحراسة العالية من حول اليخوت والقصور وحدائق الزهور.

تلك أن أوهام الأمن لا تقتصر على الدول، وإنما هى تصيب الأفراد بموجب حقيقي أحيانا، وبغير موجب حقيقى فى أحيان أخرى .

------- ٤ ---------------------------

وكان " هنرى كيسنجر " أول من لمح أوهام العرب ، ووجدها مواتية للخطة الأمريكية ذات النقاط السبع .

ولقد رأى هو والرئيس " نيكسون " ، ثم هو والرئيس " فورد " بعدها ، استغلال عنصر إضافى آخر إلى معادلة الشرق الأوسط ، وكان هذا العنصر هو شاه إيران " محمد رضا بهلوى " . وكان التفكير الأمريكى يستند إلى عدة افتراضات :

١- إن إيران ليست عربية، وبالتالى فهى ليست داخلة فى أى احتمال حظر بترولى ضد أحد، وبالذات الولايات المتحدة.
٢- ان بترولها بزيادة الضخ منه فى حالات الطوارىء يمكن أن يعوض أي احتمال فى المستقبل يقع معه وقف تدفق البترول العربى .
٣- ان حقيقة ايران غير عربية يمكن أن يساعد على انشاء خط من العلاقات المباشرة بين طهران و تل أبيب لتكون احداهما- طهران- شوكة فى الخصر العربي عند الشرق على رأس الخليج ، والثانية- (اسرائيل - حربة فى الخصر العربي عند الغرب على شاطىء البحر الأبيض!
٤- ان شاه ايران شخصيا له رأى لا يخفيه فى العرب من القاع فى مدنهم الى القمة في قصور حكامهم ، وهو يشعر بعقدة استعلاء غريبة تصور له أنه وريث إيوان كسرى أمام قبائل من البدو الرحل يعرفون قواعد التعامل مع قطعان الغنم ، وليس مع استراتيجيات البترول أو العالم.

وهكذا اندفعت السياسة الأمريكية فى أواخر عصر " نيكسون " وبقية مدة رئاسته التى قضاها " فورد " في البيت الأبيض بعده ، ثم طوال عهد " جيمى كارتر" - إلى سياسة قضت بتنصيب شاه ايران رجل بوليس مسئولا عن أمن الخليج ومفوضا .

وفي مرحلة سابقة خطرت للسياسة الأمريكية فكرة أن يكون الأمن الأمريكى فى المنطقة منوطاً بمحور اقليمي يقوده شاه إيران ، والملك " فيصل " ، والرئيس " السادات " . لكن الفكرة لم تستطع أن تحلق فوق الأرض ، وكان الفضل راجعا إلى الملك " فيصل " الذي كتب الى الرئيس " السادات " فى إبريل سنة ١٩٧٥- أى قبل شهر واحد من اغتياله على يد أحد أبناء اخوته – يقول له :

" فخامة الرئيس
أي كلام عن ترتيبات معينة بين مصر والمملكة وإيران يؤدى الى احراج لنا . واول الاحراج ان نتهم بالسعى الى احياء حلف بغداد القديم . وهذا الأمر ليس من المصلحة . " [**رسالة حملها**

مبعوث خاص من الملك " فيصل " إلى الرئيس " السادات " ولعل الملك " فيصل " أرادها مكتوبة لتسجيل موقفه .]

ونامت الفكرة بعض الوقت ، ثم عادت مرة أخرى مع مجيء وهم السلام ليلحق بما سبقه من الاوهام في المنطقة ، فقد كان شاه إيران من أكبر المشجعين للرئيس " السادات " على القيام برحلته الى القدس سنة ١٩٧٧. وراحت الأحلام تراود واشنطن بأن المستجدات الطارئة في الشرق الأوسط يمكن أن تصنع محورا جديدا يضم طهران والقاهرة وتل أبيب ، وهذا المحور يمكن ان يكون بديلا جديدا يساعد الخطة الأمريكية .

ولم تكن السياسة الأمريكية غارقة مثل غيرها فى الوهم . كانت ترى خطتها تأخذ طريقها المرسوم بحكم تداعيات الحوادث ، وبحكم ما تم من خطوات عملية :

من ناحية كان البترول قد ظهر بكثافة لا بأس بها فى موقعين جديدين : بحر الشمال ، وألاسكا.
ومن ناحية ثانية كانت " وكالة الطاقة الدولية "، وهى إحدى بنود خطة " كيسنجر " العلنية، قد اكتمل إنشاؤها، وأصبحت قادرة على التدخل فى سوق البترول وفق مقتضيات الظروف حيال أى طارىء - بإطلاق كميات من الاحتياطى تدعو إليها الحاجة هنا او هناك . كما أنها أصبحت تملك الوسائل التى تمكنها من تحويل ناقلاته من مكان إلى آخر إذا ما دعت لذلك أسباب .

كذلك فإن الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى وسطه، بدا مستغرقا بالكامل في أوهامه .

كان الهدوء يعود إلى أعصاب السياسة الأمريكية التى انشغلت بميادين أخرى في العالم ، خصوصا فى أوروبا .

وكانت شركات البترول الأمريكية الكبرى لا تريد مزيدا من التدخل السياسي الحكومى فى شئونها، وقد عادت الآن- على حد تعبير " روبرت آندرسون " (وزير الخزانة الأسبق في الولايات المتحدة) - " لكى تتصرف وكأنها دول مستقلة، وفي بعض الأحيان كأنها دول عظمى".

كانت الأوهام قد جاوزت حدود العقل ، حتى فقدت صلتها بالواقع .

وفى ديسمبر، وفى احتفالات عيد الميلاد سنة ١٩٧٧- كان الرئيس الامريكي " جيمي كارتر " يقضي احتفال العيد ضيفاً على " محمد رضا بهلوي " شاه ايران . ووقف الرئيس الأمريكي – الذي أقام شهرته على أساس احترام حقوق الانسان ! – وسط الحفل يرفع كأسه في صحة مضيفه الذي بدا وكانه يحكم ايران ويتحكم في المنطقة كلها بيد من حديد ، ويقول له : " انكم ياصاحب الجلالة الامبراطورية استطعتم تحويل بلادكم الى جزيرة من السلام والاستقرار وسط بحر من القلاقل والفوضى ، وهذا راجع الى قدرتكم وحكمتكم " .

ولم تكد تمضي على شرب هذه الكأس من رحيق الورد إلا شهور حتى كانت الثورة الاسلامية في ايران تهز قوائم عرش الطاووس ، وتكسر الكؤوس والرؤوس في طهران !

الفصل الرابع
آفاق من الفراغ

" لا أريد أن أظل مع المتخلفين " .

[الرئيس " أنور السادات " للسيد " أحمد بن سودة " رئيس الديوان الملكى المغربي – اكتوبر١٩٧٩] .

-------- ١ ----------------

عندما انفجرت الثورة الاسلامية فى إيران كان صداها فى العالم العربى واسعا وعميقا رغم اختلاف اللغة، واختلاف المنابع الثقافية، وحتى اختلاف نوع الأبطال . فـ " الخميني " كان يوجه رسائله للناس بالفارسية، والتراث الفارسى كان موجودا فى خطابه العام رغم أساسه الدينى، والجماهير العربية تعودت أن يتقدم الصفوف الأولى من حركتها الوطنية شيوخ مدنيون من أمثال " سعد زغلول " ، أو ثوار شبان من أمثال " جمال عبد الناصر " . وكان صعبا على هذه الجماهير أن تستجيب لدعوة رجل يرتدى عباءة سوداء وفوقها عمامة من نفس اللون تغطى تقاطيع وجهه الذى تنسدل منه لحية بيضاء تطل فوقها عيون حزينة ومتعبة ، وتحيط بها ملامح حفر الزمان عليها تجربة ثمانين سنة حافلة!

ولقد كان الصدى واسعا وعميقا لأن جماهير غفيرة على امتداد المنطقة بين الخليج والمحيط راحت وسط أوهام عصر البترول تحاول العثور على يقين . وكان أقرب اليقين المطروح هو اليقين الدينى. فالناس مولودون بهويتهم الدينية ومؤسسة الأسرة تعطي مواريثه التقليدية بطريقة طبيعية مع رضاعة الطفل فى البيت ، ومع التربية التي تكوّن بدايته الثقافية من الصبا وتظل معه العمر بطوله.

والحق أن بداية البحث عن يقين بدأت فى العالم العربى بعد صدمة الشك سنة ١٩٦٧ . ثم جاءت ضرورات الصراع مع إسرائيل وحتمية المعركة، فشدت الجميع الى مجال التأثير القومى والوطنى بالدرجة الاولى ، وجاءت الأيام الأولى من معركة اكتوبر فأحيت الآمال لبعض الوقت، حتى جاء عصر البترول وأشاع أوهامه .

إن أوهام عصر البترول لم تنحصر فى مناطق انتاجه، وعندما زادت العوائد والفوائض فإن جزءاً منها انسكب وسال على بقية الأرض العربية . ووجد كثيرون في العالم العربى أن وسيلتهم للثراء لا تتحقق بانتظاره فى بلادهم حتى يصل اليهم بعض خيره . وإنما وجدوا من الأفضل أن يرحلوا هم إلى البترول بدلا من الوقوف فى انتظاره . وما بين ١٩٧٤ و ١٩٧٦، أى فى مدة سنتين اثنتين، كان هناك ٩ ملايين عربي يتحركون وراء الفرصة السانحة فى الخليج بما فيه العراق . واستطاع البعض أن يمسك بالفرصة، واختار أن يرسل أرباحه إلى بنوك أوروبا وأمريكا مباشرة دون توقف أو مرور بالأوطان الأصلية . ولم يتمكن البعض الآخر إلا من الحصول على ما يفى بالتزامات حياته هناك مستقطعاً جزءاً يبعث به إلى الوطن الأصلى لتعيش عليه الأسر التى بقيت فيه. وهكذا فإن الجزء الذي تحقق من أمل البترول لقلب العالم

العربى كان ضئيلا بالقياس لثروة البترول نفسها ، وضئيلاً أيضا بالقياس لما جرى تحويله مباشرة للخارج من النين عثروا على الفرصة وأمسكوا بها .

ولم يجيء المال الذى تسرب من البترول إلى قلب العالم العربى، سواء بواسطة طلاب الفرصة الذين أمسكوا بها، أو طلاب العمل الذين حصلوا عليه- وحده ، وانما جاء يجر وراءه ذيلا طويلا من القيم : قيم الربح السريع، والاستهلاك الزائد، و مداراة الغنى والخضوع السهل لرغباته ونزواته.

وزاد على ذلك أن البترول بدوره بدأ يجيء إلى القلب باحثا بنفسه عن فرص وجد أنه بدوره يستحقها . وكان معظم استثماراته فى مجال الاستهلاك ، وفى مجالات التسلية مثل التليفزيون والسينما بحثا عن ربح تتسارع فيه دورة رأس المال دون أصول كبيرة ثابتة فى الأرض يصعب نقلها عند الضرورة ، وكذلك من مواقع تأثير يمكن استخدامها في تطويع القيم وإشاعتها. وكانت للمال- كما هى العادة- عنجهيته، فقد تصور القادمون من أطراف العالم العربى إلى قلبه فى بعض الأحيان أنهم الخبراء بقروض الاستثمار وسوق المال . ولم يكن ذلك تصرف أفراد يقتصر أثره عليهم ، وإنما تصرفت حكومات النفط أيضا بنفس المنطق ، فكان أن وضعت شروطا للقروض والتسهيلات تمر عن طريق البنك الدولى أو تصوغ عقودها بلغته ومفرداتها . وبتأثير الاحتكاك بالمؤسسات المالية الدولية خصوصا فى الولايات المتحدة ، فإن ممثلى الحكومات العربية المنتجة للبترول والصناديق العربية المنشأة بأمواله يتصرفون بنفس منطق البنك الدولى وصندوق النقد الدولى .

وحاولت المدن الكبيرة فى العالم العربى أن تسترضي شيوخ القبائل بقصائد المديح، ولكن الشيوخ طربوا بسماع القصائد ، ولم يطربوا بنفس المقدار للمطالب التى جاءت بعدها .

وفى منتصف السبعينات كان قلب العالم العربي قد بدأ يتململ . وقبل أن تجيء الثمانينات كان التململ قد تحول إلى نوع من الشعور بخيبة الأمل . كانت الجماهير العربية في القلب العربى تشعر أنها على نحو أو آخر أعطت دماء أبناءها فى حرب أكتوبر التى أدت ضمن ما أدت إلى رفع أسعار البترول، وبالتالى فإن الثرو ة التى فاضت تم دفع ثمنها مقدماً بالدماء التى سالت ، وبدأ الإحساس يشتد بتفاوت الحظوظ فى العالم العربى . وبمقدار ما كانت أوهام عصر البترول تتبدد ، كان البحث عن اليقين يشتد. وفى هذا المناخ علا صوت الثورة الاسلامية فى إيران وامتد أثره .

والحاصل أن الثورة الاسلامية فى مطالع الثمانينات وجدت صداها فى العالم العربى بفعل عوامل كانت كامنة ، موجودة ومفقودة فى نفس الوقت داخل الذات العربية.

كان هناك البحث عن يقين فى مقابل شيوع الوهم ، وفى مرحلة سابقة كانت الوطنية والقومية (بالمحتوى الحضارى للدين)- تعطى الناس زادهم من اليقين الضرورى . وأن يجيء الدين ليعطى اليقين المطلوب مباشرة - فإن ذلك لم يكن شيئا غريبا ولا دخيلا فى وقت أزمة .

و كان الحال هو نفس الحال بالنسبة لفكرة العدل الاجتماعى التى ترسبت فى وعى الجماهير فى حقب الأربعينات والخمسينات والستينات . وإذا كانت الأفكار والمواثيق قد حملت فكرة العدل الاجتماعي ، فإن الدين يستطيع أن يعطيها قوة نفاذ أعمق فى أي لحظة .

بل إن العنف الاجتماعي سرى عليه نفس الحال . كانت فكرة الجهاد قديمة فى الاسلام ، ثم ساعدت معارك العرب الحديثة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٦، إلى سنة ١٩٦٧ ، الى معركة الاستنزاف ، الى معركة اكتوبر – على بروز الاستعداد لممارسة العنف في المجتمعات العربية.

كانت تلك كلها استجابات طارئة لنداءات سابقة ومألوفة، لكن المشاكل بدات بعد ذلك :

o كان الاسلام القادم من ايران يرتدى عباءة فارسية متأثرة بالمواريث الحضارية لأمة تعيش فى جو حصار بين شبه القارة الهندية، وشبه الجزيرة العربية .

فى حين أن الاسلام كما تلقاه العرب كان مفتوحا على الأقطار والامصار .

o والإسلام الذى جاء من ايران كان يحمل بشكل ما نبرة آسيوية بسبب عنصر اللغة. ذلك ان القرآن عربي اللسان و إن كان عالمى الرسالة ، وغير العرب من المسلمين ليس فى يدهم كثير غير النص الحرفى ، لكن النص الحرفي كان في اللغة العربية وسط تراث ضخم من السنة والفقه والحديث والفلسفة ، وحتى الأدب، تساعد على فهم أبعاده ، فى حين أن الاقتصار فى التفسير على النص الحرفى يعوق الكثير من أسباب الاجتهاد مع تطور الأزمنة والعصور.

o وفى نفس الوقت فإن دعوة العودة للإسلام الصادرة من قم و طهران كانت تحمل أيضا نبرة انسلاخية فى مواجهة الآخر حتى وان كان هذا الاخر من نفس الوطن ، وكان ذلك هو التأثير البارز للحركة الاسلامية فى الهند ، كما عبر عنها " أبو الأعلى المودودى " فى مواجهة الأغلبية الهندوكية التى كان الاسلام في الهند في حالة تناقض معها .

وأما فى العالم العربى، فإن الإسلام كان فى بيئته مندمجا فيها متوحداً مع " خير أمة أخرجت للناس".

ومهما يكن فإن نداء الثورة الاسلامية فى ايران جاء متوافقا مع زمانه، و كانت الأمة العربية تصيخ السمع إليه بانتباه وباهتمام ، فقد وافق مقتضى حالها فى تلك الفترة . ولقد أضيفت إلى قوة هذا النداء حقيقة أن العالم العربى فى ذلك الوقت كان يواجه فراغاً في القيادة ، فقد اختفت جاذبية القيادة السياسية كما مثلها " جمال عبد الناصر " واختفت هيبة القيادة التقليدية كما مثلها الملك " فيصل ".

------- ٢ ---------------------

ولقد ضاعف من الاحساس بالفراغ أن المؤسسات الدينية و التقليدية راحت تترك نفسها للسلطة السياسية – أو لغيرها - تستغلها لأغراض ضيقة .

ان نفس المؤسسات التى حضت على قتال إسرائيل كانت هى نفسها التى أخرجت فتاوى الصلح معها .

ونفس المؤسسات التي ساعدت فى التبشير بفكرة العدل الاجتماعى كانت هى نفسها التي راحت تحض الفقراء على القبول بالتمايز الطبقى الفادح الذى جاء به عصر الانفتاح .
وجاءت محاولة الاستغلال السياسى للمؤسسات الدينية " التقليدية " فى وقت غير ملائم من كل الوجوه .

فالأمم الاسلامية والأمة العربية- فى مقدمتها- تواجه بحكم انتمائها جميعا للعالم الثالث مشكلات وأزمات عالم تتغير أحواله وقيمه ، وهى جميعا غير قادرة لأسباب متعددة بتعدد الامم نفسها مع المتغيرات، وبالتالى فإنها بدون استثناء تواجه أزمة تراجع لاشك فيها .

ولقد وجدت هذه الأمم ، وشبابها بالذات، فى الدين ملاذا وعاصما، وهذا شىء طيب في مطلق الاحوال لأنه من المهم أن تجد الأمم فى أوقات الأزمات خط دفاع أخير يحمى وجودها ذاته وقد أصبح مهدداً .

ولقد كانت الحاجة الى هذا الخط الدفاعى الأخير هى التى أدت إلى قيام الثورة الايرانية ، وكان قيامها مستحيلا لولا أن استوجبته ضرورات التطور.

ولقد كانت المؤسسات الاسلامية فى العالم العربى- بحكم كونها نتاجا مباشرا لموطن الرسالة ، ووريثة شرعية لتجربة متراكمة فى الفكر والاجتهاد والفهم بحكم الإحاطة الشاملة بالتراث الواسع للغة التي نزل بها النص - أقدر من غيرها فى أى عاصمة اسلامية على اداء دور المرجع المعتمد في شئون التفسير والفتوى .

ولم يكن مطلوباً منها ان تدخل فى صدام مع " قم " أو " طهران " ، وإنما كان عليها أن تلاقي أفكار الثورة الاسلامية فى إيران ، وأن تدخل فى حوار دينى معها تستفيد منه الأمم الاسلامية في أزمتها الطاحنة، إذ تجد مرجعية تساعدها فى وقت محنة وامتحان .

لكن الغريب أن المؤسسات الدينية التقليدية دخلت فى معركة عداء مع " الخمينى " لا مبرر لها إلا ظروف سياسية جعلت الرئيس " السادات " يتصور ويتصرف على أن شاه إيران صديق للعرب وصديق له، وإذا الفتاوى تصدر من القاهرة بالحملة على " الخميني " إلى الحد الذى دفعه، وهو مازال فى باريس لم يذهب بعد منتصرا إلى طهران - إلى التساؤل : " لماذا تقف المؤسسات الاسلامية الرسمية فى مصر هذا الموقف العدائي من الثورة الاسلامية؟ "

والغريب أن الحجج التى استعملت فى مصر ضد الثورة الإيرانية قامت على اساس " طاعة ولي الأمر " – ولم يكن الشيوخ فى القاهرة قد درسوا بالقدر الكافى ما إذا كانت " طاعة الشاه " فرضا على المؤمنين، أم أن سياساته وتصرفاته أسقطت موجبات طاعته .

كان هذا نموذجا صارخا لاستغلال الدين فى السياسة.

ثم تكرر نفس الشىء فى حادثة مقتل مئات الحجاج الإيرانيين في مكة سنة ١٩٨٧ . لقد خرجت الآراء والاجتهادات من القاهرة تدين الحجاح الإيرانيين دون تحقيق ، أو تدقيق فى واقع ما جرى . وربما كانت هناك أخطاء، ولكن الاخطاء كانت على الجميع . والغريب أن شهادة وزير الأوقاف الباكستاني وقتها السيد " شاهد شهيدى " كانت قريبة المنال ، ومنشورة فى جريدة " نيويورك تيمس " في الغرب ، ومع ذلك فإن أحدا لم يكلف نفسه بمراجعتها قبل الفتوى .

كانت قيمة شهادة " شهيدى " أنه كان هناك، وأنه كان مسئولا بطلب من السلطات " السعودية " عن التنسيق بين بعثات الحج المختلفة.

كان الإيرانيون ينظرون إلى موسم الحج ، ليس فقط باعتباره طوافا وسعياً ، ولكن أيضا باعتباره لقاء بين المسلمين ، وهذا معقول فى حد ذاته .

وطلب الحجاج الإيرانيون تنظيم مسيرة لهم تسعى إلى أبواب الحرم ، وكان المسؤول عن تنسيق علاقات بعثات الحج بالسلطات السعودية هو الذى حمل طلبهم وناقشه مع السلطات السعودية التي وافقت على المسيرة ، وعلى خط سيرها ، واشترطت أن تتوقف وتنفض قبل خمسمائة متر من أبواب الحرم . كذلك طلبت السلطات السعودية أن تخطر مسبقا بالنداءات والشعارات التى تصدر عن هذه المسيرة - وهذا مشروع فى حد ذاته أيضاً .

وبدأت المسيرة فى موعدها من نقطة بدايتها المقررة، وسارت في طريقها المرسوم ، وتعالت فيها النداءات والشعارات، وكانت فى حدود ما جرى الاتفاق عليه . ثم حدث أن انضمت إلى المسيرة أعداد كبيرة من الحجاج تفوق بكثير تقديرات السلطات السعودية . وداخل نفوس المسئولين عن الأمن السعودى إحساس بالقلق، وهذا منطقى فى حد ذاته كذلك .

ورأى مسئولو الأمن السعوديون أنه من الضرورى أن تنفض المسيرة قبل اكثر من خمسمائة متر مثلما سبق الاتفاق عليه ، فقد كان تقديرهم أنه إذا وصلت المسيرة بهذا الحجم الى المسافة المتفق عليها من قبل قرب الحرم ، فإن انفضاضها قد يخلق مشكلة.

ودارت اتصالات واستحكمت بالعصبية آراء :

رأى القادة الإيرانيين للمسيرة، وهو يطالب بتنفيذ الاتفاق ، كما جرى خصوصا وأنه يصعب إبلاغ الكتل الزاحفة أن مسافة زحفهم جرى اختصارها .

ورأي سعودى يرى أن حجم الحشد تدخل لتغيير ما كان متفقاً عليه .

وكان رأى الإيرانيين أنهم يتحملون المسئولية، فالمسيرة قد جرت حتى الآن بسلام رغم ضخامة حجمها، ولم ترتفع فيها كلمة واحدة تقول غير ما سبق الاخطار به ، وتمت الموافقة عليه .

ولكن الأمن السعودى كان يرى أنه وحده يتحمل المسئولية، وعلى هذا الاساس جرى وضع حاجز من قوات الأمن عند النقطة التى قدرها الأمن السعودى ، و ليس عند النقطة التى جرى الاتفاق عليها.

ووجدت مسيرة الحجاج الإيرانيين حاجز أمن يعترضها بالقوة قبل بلوغ غايتها ، وكانت المشاعر ساخنة بحرارة الإيمان ، وربما بنار التعصب أيضا، وقررت الصفوف الأولى من المسيرة أن تمضى فى طريقها، وصدر الأمر إلى الأمن السعودى بإطلاق النار ، وجرت مذبحة.

كان الأمر كله سوء فهم يمكن تداركه . ومع ذلك فمن الصعب - انسانياً – على أي سوء فهم أن يجد من يتداركه. وإلا لاستطاعت البشرية أن تتجنب كوارث متصلة باتصال تاريخها.

وكان واجب عقلاء المسلمين أن يحتووا الفتنة ويطوقوا آثارها- لكن ذلك لم يحدث ، وصدرت الاجتهادات والفتاوى بأن ما فعله الحجاج الإيرانيون جريمة فى حق الاسلام تصل إلى درجة

الكفر. وزاد بعضهم على هذا فأورد آنه بلغه أن الحجاج الإيرانيين كانوا يهتفون بمقولة " الخمينى أكبر " ، بدلا من " الله أكبر " - ولم يكن نلك دقيقاً ، وإنما كان هتاف بعض الحجاج الإيرانيين " الخمينى داربار " أى " عاش الخمينى " ، وهو معنى يختلف ، وربما كان اللبس فيه من تقارب إيقاع الكلمات بين " أكبر " و " داربار " . ومع التسليم بأنه لم يكن ينبغى أن ينادى على مقربة من الحرم بغير اسم الله - فإن الأمر لم تكن فيه جريمة ، ولم يكن فيه كفر.

ودارت رحى حرب دعائية وإعلامية جندت بغير داع عصر الفتنة الكبرى في الاسلام ، فى وقت كان العالم الاسلامى يستطيع فيه أن يستغنى عن فتنة من هذا النوع ، فقد حلت فيه من الفتن أكثر مما يحتاج وأكثر مما تقتضيه الظروف.

ثم تكررت الصورة ذاتها مرة أخرى فى قضية كتاب " سلمان رشدى " الشهير الذي صدر بعنوان " آيات شيطانية " .

لم يكن " سلمان رشدى " ، وهو كاتب له مكانته، رجلا جاهلا تعرض لما لا يعرف . لكنه تصرف فى " آيات شيطانية " بخفة وطيش اعترف بهما بنفسه فيما بعد .

كان " سلمان رشدى " يعرف الإسلام بوصفه مسلما بالميلاد، وكان دارسا لتاريخه ولآدابه وحاصلاً على درجة " أستاذ " فى الأدب الاسلامى من جامعة " كامبريدج "، لكنه أراد أن روايته على أساس ذلك الخطأ الذى شاع حول الآيتين الكريمتين من سورة " الاسراء " : " وإن كانوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ، " ولولا أن ثبتناك لقد كنت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) ،، وكانت بعض مصادر المستشرقين قد حاولت تأويل نص الآيتين على أساس أن نبى الله العظيم كاد يفتن عن وحى الله ، ويفترى غيره على الوحى- طبقا للظاهر من كلمات الآيتين، ثم كان تأويلهم يصل الى ربط ذلك بآيتين أخريين فى سورة " النجم " تقولان : " أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ، ومناة الثالثة الأخرى (٢٠) " ، ثم راح زعمهم يقول إن الآيتين مقدمة لآية أخرى وردت بعدهما – طبقاً لبعض الروايات - ثم نسخها الرسول بنفسه، وطلب من كتاب الوحى حوله رفعها ، وكانت الدعوى تقول إن الآية المنسوخة تكمل بقية الآيتين لتجعلها تقول: (أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ، ومناة الثالثة الأخرى (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) " ، وكان تفسير ذلك فى تأويلهم أنها خطوط اتفاق بين نبى الله العظيم وزعماء الجاهلية من قريش ، يعترف من جانبه بأصنامهم فيرضون عنه ويقبلونه خليلا لهم . ولم يكن هذا التأويل جديداً ، فقبل المستشرقين تحدثت عنه مصادر اسلامية عديدة وفندته، وكان آخر المفندين هو الدكتور " محمد حسين هيكل " (باشا) فى كتابه الكبير " حياة محمد " .

والذي حدث أن " سلمان رشدى " استغل الهرطقات القديمة، وبنى على أساسها قصة " آيات شيطانية " ، وكان هذا تجاوزا مريعا من جانبه أدى إلى سقوط أدبى وفكرى قبل أن يكون دينياً واسلامياً ، لأن " سلمان رشدى " أضاف إلى حكاية الآيات المدعى بها فى المراجع القديمة تجاوزا آخر فى حق بيت رسول الله الكريم يمس زوجاته ويعرض بهن .

وتلقى " الخميني " بعد شهور من صدور الكتاب رسالة تطلب فتواه فى شأن مسلم قال كذا وكذا . وأفتى " الخمينى " - دون معرفة باسم الكاتب أو الكتاب - فتوى بأن " قائل مثل هذا القول لايمكن أن يكون مسلما ، فإذا كان مسلما ، فقد ارتد، وإذا ارتد المسلم أهدر دمه " . وقامت

مظاهرات اسلامية فى مدن بريطانيا وفى غيرها كان محركها هو الإسلام الآسيوي الذي استفزته الرواية وأخذته حرفية النصوص !

وقامت القيامة فى انجلترا، وفى الغرب كله تدعى على الإسلام بضيق الأفق ، وتجريم الابداع الفني.

وفجأة بدات مؤسسات دينية في القاهرة تدين فتوى " الخميني " في قضية " سلمان رشدي " وبدأ كلام رجال الدين عن حق المؤلف في الخيال وفي الابداع ، وان الخمينى ، رجل ضيق الأفق ومتخلف عن العصر، وقد أساء إلى الإسلام ورسالته ، ولم يحسن إليهما كما يدعى..
والغريب أن ذلك كان يحدث فى مصر بينما كان أحد القضاة فى لندن يصدر حكماً فى قضية كتاب " سلمان رشدى " لا يقضى بمصادرته، ولكن يطالب بقانون خاص يحمي الأديان من " الإهانة "، باعتبار أن الأديان يمكن تحليلها ويمكن نقدها، لكن اهانتها تتضمن تجريحا للمؤمنين بها. وقال القاضى الأنجليزى فى حكمه : " إن القانون في بريطانيا يمنع إهانة الدين ، لكنه من سوء الحظ أن النص فيه يقتصر على إهانة الدين المسيحي ، وهذا نقص يتعين تداركه لأن المجتمع البريطانى اختلف عما كان عليه، فأصبح مجتمعاً متعدد الاديان بعدما كان مجتمع دين واحد " .

وتحولت معركة كتاب " سلمان رشدى " إلى معركة اسلامية- اسلامية .

---------- ٣ ----------------

ثم خطر لبعض السلطات الدينية مما بعد أن تقوم فى الموضوع كله بخدمة سياسية تصورت أن لها فوائدها فى مجال العلاقات العامة.

وهكذا قامت بعثة من مصر تمثل وزارة الأوقاف سافرت إلى لندن . وهناك جيء لها بـ " سلمان رشدى " ، يعلن عودته إلى الإسلام ومن ثم توبته ، و كان هذا في ظن الذين فعلوه مؤديا إلى إسقاط الحكم بارتداده على أساس أنه لا يجوز حكم الردة على تائب وعائد الى الرحاب الكريمة السمحاء.

وكان رد طهران أن الإسلام ليس أرجوحة ترتد يوما إلى هذه الناحية ، وتعود في اليوم الذى يليه إلى الناحية الأخرى .

وأصبحت القضية معركة فى داخل الإسلام فى الوقت الذى كان فيه " سلمان رشدي " يقول فى حديث بصوته لهيئة الإذاعة البريطانية شيئا آخر أراده حلا وسطاً يوفق فيه بين آراء قرائه الغربيين الذين تحمسوا لحقه فى الإبداع الفنى ، وبين مخاوفه من حكم الردة الصادر عليه، وكان حله الوسط أنه لم يعد للإسلام بالمعنى الدينى، ولكنه عاد بتأكيد بيئته الثقافية " !

ولو أنه كان هناك تحقيق وتدقيق فى القضايا لاكتشف الكل أن الموضوع من أوله إلى آخره لم يكن يساوي هذه الضجة التى قامت حوله سواء بالتفسير الحرفى لنصوص الردة ، أو بالتفسير الذي اكتشف فجأة مزايا حق الكاتب في الحرية والابداع .

والحقيقة أن " سلمان رشدى " أخطأ بشدة فى طريقة تناول موضوعه، ولكن الذين أدانوه أو دافعوا عنه أخطأوا أشد لأنهم جاوزوا بالأمر حدوده ، وجعلوا الإسلام بالمتشددين في تفسيره والمتساهلين فيه فريقين : فريق من المتعصبين لأحكامهم قوة الطاعة ، وفريق من المتساهلين لا طاعة لأحكامهم من شدة التهافت . ولم يكن هناك على الناحيتين من قرأ أو حلل أو دقق ، وانما طغت مطالب السياسة على مطالب العلم .

وبجهد قليل من جانب الآخرين تحولت القضايا إلى صراع بين السنة والشيعة فى الإسلام ، واصيب الاسلام المعاصر بشرخ عميق فى بنيانه . والمحزن أن ذلك يحدث بعد سنوات قليلة من جهد عظيم قام به الشيخ الجليل " محمود شلتوت " [**شيخ الازهر في الفترة من ٢٢ اكتوبر ١٩٥٨ وحتى وفاته في ١٢ ديسمبر ١٩٦٧**] الذي أنشأ في القاهرة مجمعاً خاصاً للتقريب بين المذاهب الاسلامية . وكان هذا المجمع قد وصل الى نتائج قيمة اعترف بها " الخميني " نفسه قائلاً : " لقد كان الاسلام اليوم في حاجة الى رجل مثل إمامنا الشيخ شلتوت " .

كان زعيم الشيعة بهذه العبارة يعترف بالفضل لواحد من كبار شيوخ السنة في وقت عاصفة عاتية كانت تحتاج الى عمامة عالية المقام ترفع يدها أمام السياسة لتقول : " كفى " !

ولقد زاد على ذلك أن بعض الاقطاب من المؤسسات الدينية التقليدية تركوا أنفسهم لما سمي بشركات توظيف الأموال " الاسلامية " تستغلهم لأغراضها عن طريق اقناع المؤمنين بان استثمار الأموال فيها حلال ، بينما هو في البنوك أحرم الحرام .

وكانت النتيجة أن المؤسسات التي تلبس عباءة الاسلام بدت منحازة الى صف الاغنياء ضد الفقراء ، بينما الاسلام في كثير منه ثورة للمستضعفين ضد المستكبرين ، وكانت هذه بالضبط هي اللهجة الظاهرة في النداء الصادر عن " قم " و " طهران " .

ولم يكن المستكبرون هم أغنياء وأقوياء المنطقة فحسب ، وإنما كان الطاغوت الأكبر في تقدير الثورة الايرانية متمثلاً في أثرياء وأغنياء العالم الحاكمين في مصائره من واشنطن ونيويورك ، ولندن وباريس ، وغيرها .

ولقد أصبحت المدن العربية الكبرى مجالا مفتوحا للدعوات الأصولية ، فهذه المدن تضخمت بأعداد هائلة. فالقاهرة مثلا زاد سكانها من خمسة ملايين سنة ١٩٦٠ الى ١٤مليونا سنة ١٩٩٠. وكان السبب أن المدن الكبرى أصبحت مراكز جذب للريف بما تتيحه من فرص العمل ومستويات المعيشة، لكن المدن لم تكن قادرة على الاستيعاب ، والذي حدث أن القادمين اليها لم يستطيعوا الدخول ولا قبلوا العودة من حيث جاءوا ، وظلوا على الأطراف يصنعون حزام فقر حول المدن خطراً وقابلاً للاشتعال . وكان هذا الحزام الخطر ، والقابل للاشتعال حول المدن هو مكمن كل الجماعات التي حاولت التصدي لواقع الحال ، ولو بالقنابل والرصاص .

وكانت القاهرة أسعد حالا على أى حال من مدينة عربية أخرى مثل بيروت ، ففي العاصمة اللبنانية كان حزام الفقر الذى أحاط ببيروت هو فتيل ولغم الحرب الأهلية التي عصفت بالوطن اللبنانى كله، وهددت وجوده ذاته لأكثر من خمسة عشر عاماً حتى هدأت النيران حين اكتشفت كل القوى اللبنانية أنها جميعا منهكة، وغير قادرة على الاستمرار ، ولم يعد أمامها غير التوقف عن ألعاب النار ومغامراتها .

------------------------ ٤ -------

ولقد كان من المشاكل التى استجدت أن القبائل العربية المالكة للبترول كانت تمارس دورها الجديد فى شبه الجزيرة العربية ، وهر موطن الأماكن المقدسة ، وبدا الاسلام على غير طبيعته مقترنا بالغنى والثراء.

ولم تكن المدن العربية قادرة على رعاية الإسلام السلفى المستنير، كما عبر عنه الشيخ " محمد عبده " فى مطلع القرن ، أو حتى كما قدمه الشيخ " حسن البنا " لجيل من الشباب فى الثلاثينات من نفس القرن .

وكان العنف على وشك أن يفرض نفسه على الإسلام ، ويصبح هذا الدين السمح موزعا بين مطرقة الغنى ، وسندان الإرهاب.

وسنة ١٩٨٢ دخل الإخوان المسلمون فى مواجهة مع نظام الرئيس " حافظ الأسد " فى سوريا، وفى مدينة حماه جرت المعركة الأخيرة واستعملت دبابات الجيش في مواجهة الاخوان المسلمين الذين احتموا ببيوت المدينة، وكانت النتيجة أن راح فى المعركة ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف من سكان حماه .

وفي مكة سنة ١٩٧٩ فوجيء المصلون فى الحرم المكى الشريف برجل اسمه " جيهمان العتيبي " يستولى مع مجموعة من رجاله بقوة السلاح على الحرم مع صلاة الفجر ، ثم يبشر بمهدى منتظر اسمه " محمد بن الله العتيبى " جاء يحمل رسالة القرن الرابع عشر الهجري ، وفق مقولة تدعى أنه مع بداية كل قرن هجرى جديد يظهر " مهدى " ، يجدد للدعوة شبابها ، ويعيد إليها نقاءها، ويقضى على قواعد الانحراف والفجور، ويشيع النور بعد الظلام ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما.

وفي مواجهة قوة من " الفدائيين " ، استحكمت فى سراديب الحرم ودهاليزه ، اضطرت السلطات السعودية إلى الاستعانة بخبرة فرنسية فى التخطيط والتنفيذ لتصفية الموقف بعد عجز أمامه لمدة عشرة أيام .

ثم كان حادث المنصة فى القاهرة سنة ١٩٨١ حين اقتحمت خلية تتظيم إسلامى عرضاً كبيرا للقوات المسلحة المصرية، وقتلت الرئيس " أنور السادات " ، أمام عدسات التليفزيون وأضوائها.

ومع ان الرئيس " السادات " كان قد اختار لنفسه لقب " الرئيس المؤمن " - فإنه كان مأخوذاً بسحر الغرب، وفي جانب من جوانب سياسته فإن معاهدة " كامب دافيد " ، لم تكن بالدرجة الأولى صلحاً مع إسرائيل ، وإنما كانت رغبة فى الالتحاق بالغرب ، وعلى رأسه ، الولايات المتحدة الأمريكية..

ولم يكن الرئيس " السادات " - يرحمه الله - يخفى مقاصده ، فقد كان رأيه أن الحرب الباردة على وشك ان تنتهي ، وان الولايات المتحدة هي الفائزة فيها . وكان تقديره في جزء منه صحيحاً ، ولكن المحظور كان فى الوسائل التى اتبعها، وفى مدى الارتباط بالغرب الذي تصوره وأراده . ولقد شهدت تلك الفترة موقفا واضحا فى دلالته، فقد حدث عندما اجتمع مؤتمر

القمة العربى فى بغداد سنة ١٩٧٩ أن وجدت الدول العربية التى اجتمعت هناك أن خروج مصر على الصف العربى بصلح منفرد مع إسرائيل سوف يؤدي إلى اضعاف الأمة كلها ، والى قسمة في صفوفها وعزلة حين تصبح الدول الواقعة في القلب تماماً – حتى بالمعنى الجغرافي – من العالم العربي على وشك ان تخرج من موقعها . وارتفعت اصوات في المؤتمر تقول ان العرب لم يحسنوا التعامل مع مصر ن فقد تركوها وحدها تواجه ازمتها الاقتصادية الناشئة في جزء منها عن تحملها بعبء في الصراع مع اسرائيل يفوق طاقتها . وقرر المؤتمر ان يعرض على مصر مبلغ خمسة بلايين دولار معونة لا ترد . ورفض الرئيس " السادات " ، مجرد استقبال وفد القمة العربية الذي حمل إليه عرضها، وربما كان دافعه أنه كان قد فقد الثقة حتى فى جدية العرض .

ورأى الملك " الحسن " فى ذلك الوقت أن يبعث اليه برئيس ديوانه السيد " أحمد بن سودة " ليرجوه فى قبول دعوة القمة والبقاء فى الصف العربى . واستقبل الرئيس " السادات " ، السيد " أحمد بن سودة " ، واستمع اليه، ثم فاجأه بضحكة طويلة ممتدة وقال له :
- " هل تظن أنها مسألة مال ؟ .. لقد انتهى الموضوع ، وأنا لست حريصاً على البقاء في صفوفكم . هذا العصر مضى . وانا لا أريد أن أظل مع المتخلفين ، وإنما مكاني هناك مع المتقدمين ! "

لكن اللحاق بالمتقدمين دون ضوابط كان يمكن أن يتحول إلى نوع من التغريب أكثر منه تطورا له أسسه الثابتة، وله قاعدته الحضارية المتسقة مع نفسها ومع العصر . ولم تكن أجواء الانفتاح هى أصلح الأجواء لمثل هذا الانتقال .

وكان النداء القادم بالإسلام من " قم " و " طهران " ما زال عاليا، و لكن الاستجابة إليه راحت تقل حينما بدا أن كفاءته حصرت نفسها فى دور المدفعية، تهدم القوائم الظاهرة لنظام فاسد ، ولكنها لا تملك وسائل أخرى غير المدفعية ، لاتكتفي بالهدم وإنما تقدر على بناء صروح جديدة لنظام أفضل . وفى كل الأحوال، وهذا هو الأهم، فإن العالم العربى والإسلامى في تلك الفترة كان يعانى من حالة فراغ مخيف نشأ عن تحويل السياسة إلى معركة دينية ، وتحويل الاجتهاد الدينى إلى معركة سياسية، إلى جانب تحويل المال إلى دين والدين الى مال .

إن السياسة وصلت إلى الفراغ بالسقوط فى الوهم . وفكرة استغلال الدين (ضد طبيعته) التى تقدمت فى ظرف الأزمة لملء الفراغ لم تملؤه، وإنما أضافت إليه خواء على خواء .

وكان هذا هو مناخ أزمة الخليج، فقد حاول البعض ملء الفراغ والخواء :

إما بكلمات مرصوصة يضيع فيها المعنى

وإما بتصرفات خطيرة يختلط فيها الحساب .